الأمير شكيب أرسلان

في تعريب
وقائع آخر بني سراج

وفي تحقيق
أخبار العصر في انقضاء
دولة بني نصر

الدار التقدمية

وقائع آخر بني سراج
و
أخبار العصر

الأمير شكيب أرسلان / وقائع آخر بني سراج...

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجار نصر

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١_٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١_٥/٣١١٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http ://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

في تعريب

وقائع آخر بني سراج

(للفيكونت شاتوبريان)

وفي تحقيق

أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر

(لمؤلف مجهول)

الدار التقدمية

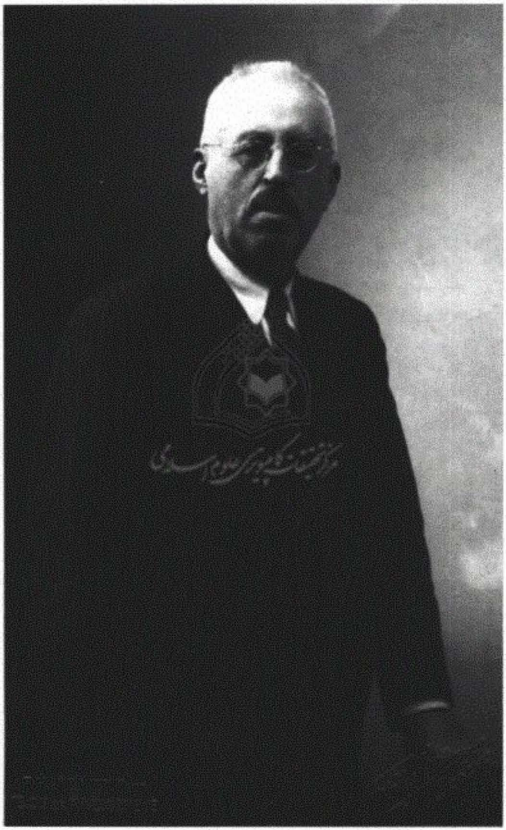

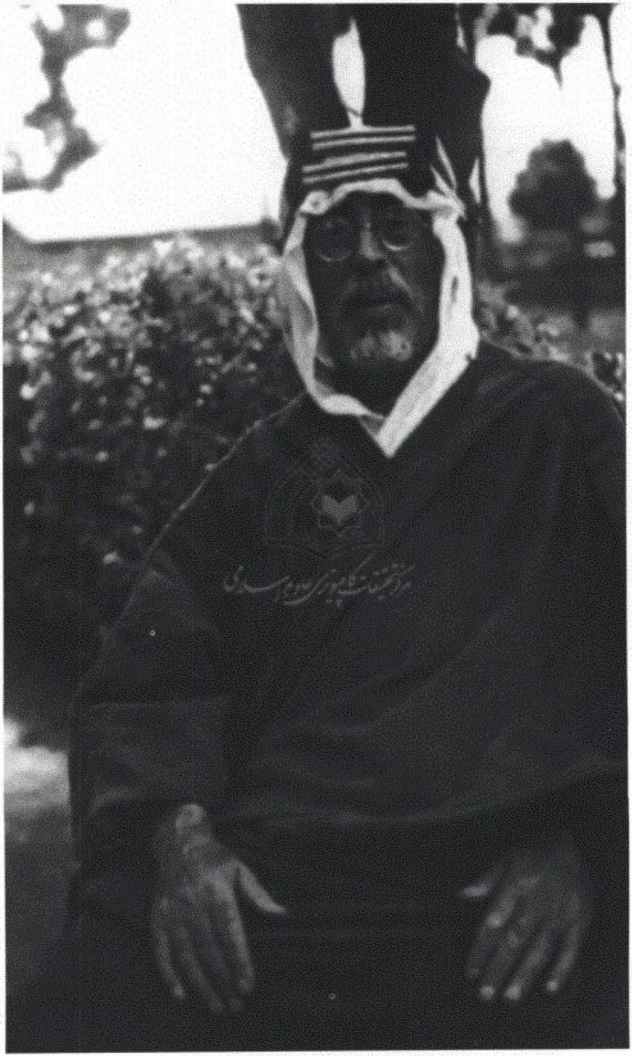

كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه إلى الأساتذة:

المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري، والمحامي الأستاذ توما عريضه،

الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم، لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، طيّ النسيان والضياع.

فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

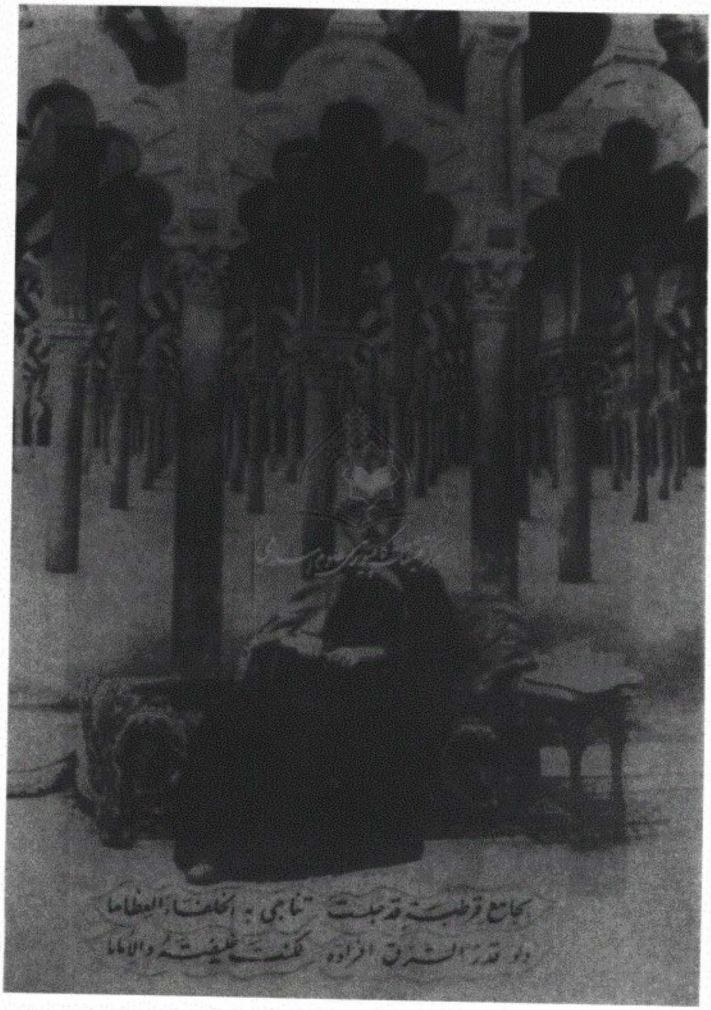
بجامع قرطبة قد جلست تناجي بالخلفاء العظاما
ولو قدر الشرق افراده لكفت عليه والاما

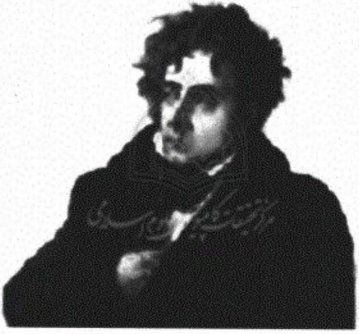

مقدّمة الناشر

على أحد الناوويس القديمة النادرة التي يكتنفها قصر الأنفاليد Les Invalides، أو حيث يرقد ضريح نابليون بونابرت في العاصمة الفرنسية باريس، حُفرت جملة معبِّرة عائدة إلى أحد المستشرقين القدامى الذين كُتب لهم أن يكونوا رُسلاً إلى بلاد الشرق، فكان لهم مأثرة التعرّف بشعبها، أو بأولئك الذين يلقّبون بـ"الناطقين بلغة الضاد"!

تقول الجملة (وهي بالعربية كتابةً): "كلَّما أطلتُ العيش في بلاد العرب، كلَّما ازددتُ اقتناعًا بعظمة هذه الأمّة"!

لا شكَّ أنَّ هذا القول المهيب، والذي حُفِرَ على نعش أثري، قد حملنا إلى فترة زمنية غابرة، بعد أن ثارت فينا النزعة القومية لتحديث ما كُتب عنَّا، كعرب، منذ مئات السنين. هؤلاء الأعراب الذين استطاعوا، بفضل رجال نظروا إلى الحياة بعين العلم والتقوى، وناضلوا في سبيل حفظ تراثهم ومبادئهم، فاستطاعوا أن يدّخروا إلى جانب ما أتقنوا من أفعال، أصدقاء لهم، وحتَّى الكثير من الأعداء، ولكنَّ الكلّ كان يُجمع على أنهم أمّة مكارم وأخلاق رفيعة، وفعلها فعل إيمان تضخّه آثار وكتابات لهم أخفق أن يمحوها غبار الزمن. ولعلَّ ما يتوقَّف عنده المرء من بين هؤلاء الرجال الرجال، ذلك الأمير المثابر الذي عاش ما بين عامي ١٨٦٩ و١٩٤٦، وهو من أصل لبناني، ومؤدّى حياته التي عاشها بأكملها مناضلاً ومدافعًا عن قضايا أمّته وشعبه، ودينه الحنيف، حتَّى نال بحقّ لقب "أمير البيان"؛ فكان ما حملته عينه من رؤى، وما سجَّله قلمه من أفكار وانتقادات بنَّاءة، تأريخًا لعصور أُفلت في سماء المجد والقوَّة والجبروت.

الأمير شكيب أرسلان، رجل لكلّ أزمنة الحضارة التي ترعرعت في حماها الدعوة الإسلامية الكريمة التي انشقَّت عن فجر جديد بزغ في ليل هذا العالم بعامَّة، وهذا الشرق بخاصَّة، فكان خير مترجم ورسول لما مرَّت به هذه الحضارة من مراحل وتطوّرات، بإيجابيَّاتها وسلبيَّاتها، واستطاع بقوَّة حدسه ومرقابه، وبرجاحة التبصّر النضالي الذي اكتنه لُبّه، أن يصوِّر لنا تلك الفترات المتوغِّلة في القِدَم تصويرًا متقنًا استطاع أن يحاكي تقنيَّات العصر الحديث. وما غاب عنه، لاغتراب سحيق في الزمن، أو لدواعي البعد الشخصاني، كانت له فيه وقفة مميَّزة تحدَّدت بالبحث عن كلّ ما ألقاه الزمن الماضي من إشارات ورموز؛ فالإنسان الذكي، الناشط، يلتقط تلك الذبذبات، ويحيلها إلى وقائع حيَّة تقرّ بها الأفكار، وتنتعش بفضلها الذاكرة.

لقد تمكَّن الأمير شكيب عبر بحثه وتنقيبه عن بعض تلك الآثار الهامّة، وخصوصًا تلك المتعلِّقة بتاريخ الأندلس، ومن ثمَّ انكبابه على تعريبها وتحقيقها، من أن يسدل بظلال حقيقة تلك العصور على ما تمَّ تدوينه في بطون الكتب، وإضافة كلّ ما يمكن بهدف إنارة مكامن الشكّ التي أحاطت بدَوْر المسلمين العرب في نشر المعارف والعلوم في أوروبا، تلك القارّة التي كانت لا تزال ترزح في ذاك الردح من الزمن، تحت نير الجهل والظلمة المقيتة.

ويعجب المرء أشدَّ العجب لهذا الجهد الوافر الذي محضه الأمير شكيب من أجل تصويب صورة العرب بعامّة، والمشرقيين بخاصَّة، متَّخذًا من رواية شاتوبرايان-الأوروبي-"وقائع آخر بني سراج"، لبنة يبنيها في إعلاء صرح العرب، وفي إيضاح حقيقة ما جرى في الأندلس على لسان امرئ كان يُعتبر آنذاك في الجهة المواجهة للعرب وسياستهم وفتوحاتهم في أوروبا، وكأنَّ الأمير ها هنا كان يريد إيضاح الحقيقة كما هي، وكما جاءت على لسان الأوروبيين أنفسهم، دون مواربة ، حتَّى ولو أظهرت مواطن الإخفاق

للعرب والمسلمين. وفي هذا خير إشارة إلى ما كان يتمتّع به أمير البيان من بُعد النظر والانفتاح وقبول الآخر في حدود صيانة حقّه وحقّ أمّته. ثمَّ شاءت الأقدار أن يقع بين يديه كتاب آخر لمؤلّف مجهول، تحت عنوان «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» فتكتمل لديه دائرة البحث التي لطالما شغلته.

ولعلَّ المُطالع لتراث الأمير شكيب أرسلان، من خلال إعادة نشر هذا التراث وضبطه حديثًا في الدار التقدّمية، يرى بوضوح بالغ هذه الإحاطة بكلّ ما كان يتعلّق بالعرب والعروبة، والإسلام والمسلمين. فكان الأمير يتنقّل في ما بين شؤونهم وشجونهم تنقُّل رسول الإصلاح والمساواة، والمُصلح لذات البين، لتكون الأمور كلّها وفق الهوى القومي العروبي الذي كان معشِّشًا في أعماق كيانه ووجدانه.

هذا المؤلَّف الذي يسرّ الدار التقدّمية أن تضيفه إلى مكتبة الأمير شكيب أرسلان، صاحب المؤلَّفات الخالدة، نجده وقد ضمَّ العنوانَين المذكورَين آنفًا، لكونهما، وذلك بحسب قول الأمير شكيب، متلازمان، والثاني أشبه بـ«الذيل» للأول.

هذا، ويبقى ضمن هذه السلسلة الهامّة التي تدور رحى أحداثها في الأندلس، ذيل ثانٍ وأخير تحت عنوان «خلاصة تاريخ الأندلس حتَّى سقوط غرناطة»، وهو كتاب هامّ جدًّا وقيِّم سيصدر عن الدار التقدّمية قريبًا جدًّا بإذن الله.

يبقى ختامًا أن نمعن النظر في قراءة هذه المعالم الكشفية الهامّة، لكي تتراءى لنا سمات تاريخنا، وهو تاريخ مشرِّف وعظيم على ما يظهر، وعلى ما سبق ونلنا من ظفر المؤلَّفات والشهادات التي تعتدّ به؛ أمَّا

حاضرنا ومستقبلنا، فيبقيان رهينة صنعنا، وأعمالنا، وحفاظنا على تلك الأمجاد، وهما، على ما يبدو، لا ينبئان بالكثير حتَّى الآن! وعليه، لنا أن نسأل: هل من أمير بيانٍ جديد يُصلح ذات البين بين أبناء الأمّة الواحدة، ويعترف ويقرّ بالخطإ دون وجل، ويعطي لكلّ صاحب حقٍّ حقَّه، فيصحِّح مسيرة التاريخ؟! الإجابة تبقى رهنًا بما سيتبع من أيام!

الدار التقدّمية

في، ٤ آذار ٢٠٠٩

التعريف بكتاب
«أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر»

بينما نحن في تجديد طبع هذا الكتاب «آخر بني سراج» مع ذيله في أخبار الأندلس، لا سيَّما حادثة سقوط غرناطة، إذ ظفرنا بنسخة من كتاب «أخبار العصر في أخبار دولة بني نصر» مطبوعة بمدينة منيخ عاصمة بافارية سنة ١٨٦٣. وقد عُنِيَ بطبعها وتعليق بعض حواشٍ عليها، ونشر ترجمة ألمانيّة للأصل العربي في آخرها مستشرق يقال له «مارك يوس موللر»، ولم يرِد في هذه النسخة اسم مؤلِّف الكتاب. فآثرنا ضمّ هذا التأليف أيضًا إلى آخر بني سراج، وذلك لما يأتي:

ـ **أولاً**، لأنَّ جُلَّ غايتنا من البداية هو التنقيب والإحفاء[1] في قصّ آثار العرب الأخيرة في ديار الأندلس.

ـ **ثانيًا**، لكون الكتب العربية المصنَّفة في هذا الموضوع نزرًا جدًّا، كما أشرنا إليه في مقدِّمة الذيل، وكما قال المستشرق مولر، المارّ الذِّكر في المقدِّمة الوجيزة الألمانية التي صدَّر بها طبعة «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» المذكورة؛ فإنَّه قال: إنَّه في العربية لا يوجد إلاَّ منابع قليلة جدًّا لأخبار مصيبة مسلمي غرناطة، وإنَّ خلاصة المقري (صاحب نفح الطيب) في هذا الصدد واضحة النقص، والآن عندنا خلاصة أخرى مخطوطة وُجِدَت في قصر الأسكوريال (الشهير الواقع على مسافة ٥٠ كيلومترًا من مجريط أو مدريد)، ولم يرِد ذكرها في فهرست «كزيرى».

---

(١) إزالة كلّ شائبة.

ـ ثالثًا، لأنَّ صاحب هذا التاريخ كان معاصرًا للكائنة الأندلسية الأليمة؛ فقد جاء في آخر الكتاب أنه نجز يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الثانية من عام ٩٤٧. ويظهر من روح الكتابة أنها كتابة رجل معاصر، ويلوح لي أنَّ المقري أخذ عنه.

وقد أشار المستشرق موللر في صدر الطبعة إلى أنه مع كلّ ما هو عليه هذا المخطوط من الوجازة، فلا تخلو مطالعته من الفائدة، لأنه نصّ شاهد عيان كان في الحادثة بنفسه، وروى أخبار بسالة بني جلدته وسياسة الخيانة والغدر التي سار عليها ملوك الإسبان، روايةَ مرتمضٍ محترق الفؤاد.

ولإكمال الفائدة، ألحقنا «خلاصة تاريخ الأندلس حتَّى سقوط غرناطة» بمجموعة صغيرة تحتوي على أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر إلى بعض فرسان الإسبانيول وزعمائهم. وهذه قد وقعت لنا مطبوعة بباريز سنة ١٨٨٣، بعناية المسمَّى «هرتويغ ديرنبورغ»، وعنوانها «أربعة كتب مُرسلة من أبي الحسن علي سلف آخر ملوك غرناطة»، محرَّرة بين سنتَي ١٤٧٠ و١٤٧٥. ولقد نشرت معها ترجمتها بالفرنسية بقلم المسيو ديرنبورغ المذكور، مع مقدِّمة قيّمة وحواشٍ مفيدة، يجدر منها بالذكر استشهاده في عدّة مواضع بالمستشرق الألماني مارك يوس موللر بكتاب «أخبار العصر» الذي طبعه بمنيخ سنة ١٨٦٣، وإشارته إلى كون موللر المذكور نقل من المخطوط سنة ١٧٥٨، من الأسكوريال، كتابًا لابن القوطيّة تاريخه سنة ٩٨٦ للهجرة (١٤٩١م)، في وصف الحالة التي آل إليها مهاجرو غرناطة في أفريقية، ومنها تحقيقه أنَّ الأمير محمَّد بن سعد، الملقَّب بـ«الزغل»، مدفون بتلمسان.

ومنها قوله إنَّ ملوك غرناطة كانوا يلقَّبون الواحد منهم بـ«أمير المسلمين» اقتفاءً لأثر يوسف بن تاشفين الذي لَقَّب نفسه بأمير المسلمين،

تجافيًا عن لقب "أمير المؤمنين" الذي كان حقّ الخلفاء العبّاسيين لذلك العهد. وإنَّ أبا الحسن عليًّا بن الأحمر، كان يقال له أيضًا "الغالب بالله"، وذلك أنَّ شعار سلطنة بني الأحمر، كما هو مكتوب على جدران الحمراء وعلى السكّة المضروبة بغرناطة، هو "لا غالب إلاَّ الله"، وأنه يوجد في مخدع المسكوكات بفرنسا قطعة كبيرة من الفضّة على شكل دائرة، في وسطها مربَّع مكتوب فيه هكذا: "عبد الله الغالب بالله علي ابن سعد بن علي بن يوسف بن محمَّد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر أيّده الله ونصره"، وفي أحد جوانب الدائرة مكتوب: "لا غالب إلاَّ الله" ومن الوجه الآخر دائرة أيضًا فيها مربَّع في ضمنه آية من القرآن، وعلى جوانب الدائرة: "طبع بمدينة غرناطة حرسها الله".

• تمَّت الرواية وذيولها والحمد لله •

شكيب أرسلان

تمهيد تاريخي
في ذكر بني سراج

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الأندلسيين عند الأفرنج وأبعدهم صيتاً ، وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الأحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للأسرة المالكة ، ويعزون اليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحب أحد شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال ، وضربت له موعداً للقاء في احدى خلوات القصر الشهير بالحمراء ، فاجتمعا ساعة هي بالعمر أجمع ـ وقد كانت كذلك ـ يتناجيان ويتغازلان ، ولكنهما بُغتا وهما على تلك الحالة ، ونمي أمرهما إلى السلطان ، فاستشاط غضباً ، واستحضر لديه أكثر رجال بني سراج وأمر بضرب أعناقهم في المكان المسمى بقاعة الأسود من حمراء غرناطة فقتلوا جميعاً ، ومن خرافات الاسبانيول أنه لم يزل يسمع لرؤ وسهم صدى عند خفوت الأصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغياً وظلماً[1] .

---

(١) في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يميل الى أن هذه الأسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظن أن واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٢م .

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تروى لهم قضايا بطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات ، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الأحمر ، نصروا محمد الأعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ١٤٢٧ فتك بقسم من بني سراج ، فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً إلى ملك قشتالة . وقد أشارت إلى واقعة قتلهم بعض الأغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في أعضاد المغاربة وبكوها طويلاً . اهـ .

وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن أنه تحريف عن بني الزغبي نسبة إلى قبيلة زغبة ، وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية ، وفي التحريف المعتاد في أسماء الأندلس بين عربها وعجمها ما لا يجعل هذا التحريف بعيداً .

وأما الذي بأيدينا من كتب العرب فلا يشير إلى شيء من هذه القصة ، ونظن أنها لو كانت واقعية لم يسبق اليها أحدٌ صاحب (نفح الطيب) الذي ينبغي أن لا تفوته حكاية غرامية كهذه في كتاب استوفى أمثالها . وهكذا قرر المرحوم ضيا باشا الأديب الشاعر المشهور من وزراء الدولة العثمانية في تاريخه للأندلس باللغة التركية ، فإنه أشار إلى هذه الحكاية المتداولة عند مؤرخي الأفرنج ، وبيَّن استحالةَ وقوعها بدون أن يعرفها كتَّاب العرب وتشتهر عندهم ، ورجح أنها من أوهام الاسبانيول وخيالاتهم .

وأنا أذهب إلى أنها إن كانت ذات أصل ، فلا بد أن يكون ضعيفاً جداً نظراً لتعامي المؤرخين عنها ، ويا ليت شعري ! ماذا كان يقول ابن خلدون ـ لو أحياه الله في المائة التاسعة بدل الثامنة ـ إذا وقف على حكاية الفاهمة الأميرة في الحمراء مع الشاب السراجي ، وما أعقب ذلك من نكبة

أبي عبد الله بن الأحمر لبني سراج ؟ أفلا يخطر ذلك بباله قصة العباسة مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصة[1] ؟ لا جرم أنه كان ينتهج هذه المرة من الخطة في البرهان على عدم صحة الرواية ما انتهجه في تبرئة شرف العباسة ، وتنزيه جانبها عن خرص القصاصين ووضع المؤلفين . على أنه إن كانت قصة أخت هارون عديمة الصحة ـ مع اشتهارها في كتب العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقتناعهم بها ـ فما ظنك بهذه وهي غريبة ولم يعرفها العرب ، ولا حكاها غير الافرنج في ما نعلم ؟

وبالاجمال فكثير من هذه الأحاديث الغرامية ـ في الشرق وفي الغرب ـ هو من أوضاع أهل القصص ، خصوصاً الجانحين منهم لهذه المشارب لما هو مركوز في فطرة القرّاء ـ ولا سيما العشاق المستهترين ـ من الميل إلى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسياً بها في ما هم عليه من التهتك والمجون ، واسترسالاً بعدها إلى الشهوات . ولو لم تكن قصص العشق أعلق الكلام بالقلوب ، وأميل الأحاديث بالنفوس ، لما كان السواد الأكبر يؤثرون مطالعة الأقاصيص الغرامية في هذه الأيام ، حال كونهم يعرفونها من أوضاع القرائح وخيالات الأذهان ، والفرق بين هذه وبين تلك ـ في لذة المطالعة ـ فرق ما بين الواقع والموهوم .

وأما ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد ورد في (النفح) ـ عند ذكر أنساب الأندلس ، وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق ـ قوله : « قال ابن غالب (بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج) ولم يقل أنهم من غرناطة فلعلهم انتقلوا إلى غرناطة بعد انتقال قرطبة إلى الأسبانيول » وذكر صاحب (مطمح الأنفس)

---

(١) أي على القول بأنها سبب النكبة ، والصواب أن سببها سياسة البرامكة الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب .

رجلاً يقال له ابن سراج في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد قال أنه كان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من إيرادها وهي « أنه كان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، فجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه ، وهم يقتطفون من نخب آدابه ، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وأمامها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خائفة ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي مكاناً لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلم يغن عنها تواريها شيئاً لأنه حال ما نظرها ، قال قولاً فضحها وشهرها ، وهو :

وناظرةٍ تحتَ طيِّ القناعِ ... دعاها إلى اللهِ للخيرِ داعِ
سَعَتْ خفيةً تبتغي منزلاً ... لوصلِ التَّبتُّلِ والانقطاعِ
وجالتْ بموضعِنا جولةً ... فحلَّ الربيعُ بتلكَ البقاعِ
أتتنا تبختَرُ في مَشْيِها ... فحلَّت بوادٍ كثيرِ السباعِ
ورِيعت حذاراً على طِفلِها ... فناديتُ يا هذه لا تُراعي
غزالُكِ تَفْرَقُ منهُ اللُّيوثُ ... وتَنْصاعُ منهُ كماةُ المَصاعِ
فولَّتْ وللمِسْكِ من ذَيلِها ... على الأرضِ خطٌّ كظهرِ الشُّجاعِ[1]

وورد في (المطمح) أيضاً في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي « انه كان مرتسماً في عسكر قرطبة ، وكان ابن سراج يتأتى له في كل ما يبتغي خيفة من لسانه ، ومحافظة على احسانه ، فلما خرج الى اقليش خرج معه ، وجعل يساير من شيعه ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسن بن سراج لوداعه ، وأنشده في

---

(١) الشجاع اسم نوع من الحيات .

تفرق الشمل وانصداعه :

هُم رحلوا عنا لأمرٍ لهم عنّا ... فما أحدٌ منهم على أحدٍ حنّا
وما رحلوا حتى أستفادوا نفوسَنا ... كأنهم كانوا أحقَّ بها مِنّا
فيا ساكني نَجْدٍ لتبعُدْ داركم ... ظننّا بكم ظنّا فأخلفتُم الظَّنّا
غدرتُمْ ولم أغدُرْ وخنتم ولم أخُنْ ... وقلتم ولم أعتبْ وجُرْتُمْ وما جُرْنا
وأقسمتُم أنْ لا تخونوا أخا الهوى ... فقد وزمامِ الحبِّ خُنتُمْ وما خُنّا
تُرى تجمعُ الأيامُ بيني وبينَكُمْ ... ويجمعُنَا دهرٌ نعودُ كما كنّا ؟

ومما ورد أيضاً في (النفح) من ذكر بني سراج عند ترجمة الوزير الرئيس العلاّمة ابن عاصم الغرناطي « أنه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم بن سراج » . وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضاً « ومما خاطب به شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الأبيات :

فديتُك لا تسألْ عن السرِّ كاتباً ... فتلقاه في حال من الرشد عاطلِ
وتضطرُّه إما لحالةِ خائنٍ ... أمانَته أو خائضٍ في الأباطلِ
فلا فرق عندي بين قاضٍ وكاتبٍ ... وَشى ذا بسرٍّ أو قضى ذا بباطلِ

وورد أيضاً عند ذكر العلاّمة ابن مرزوق « أن من تآليفه العديدة (المعراج ، في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية » .

ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين أن بني سراج - الذين تكثر من التنويه بهم الكتب الافرنجية - هم قوم ا لاستاذ المذكور لكونه من أهالي المائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الأخير الذي اشتهروا به عند الافرنج ، على أنني لم أعهد إلا ما ندَّ عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت

لبني سراج الغرناطيين المتأخرين ، وأنت ترى أنهم هناك من حملة السيف وهنا من حملة القلم ، ولا عجب فقد طالما اجتمعا في البيوتات العريقة ، وتقارنا في العشائر النبيلة ، وبنو سراج ممن قرنوا السيف إلى القلم ، وجمعوا الحكم إلى الحكم ، فأحرزوا كغيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه ، والتحفوا المجد بمطرفيه .

« من كتاب خلاصة تاريخ الأندلس »
للمترجم

الفصل الاول

سطور من التاريخ

لما اضطرَّ السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة آخر ملوك الاسلام بالأندلس الى مهاجرة ملك أجداده ، والجلاء عن بلاده ، وقف يبكي على الأحبة والمنازل من ذروة جبل (بادول) المشرف على البحر ، إذ كان هذا الملك المشؤوم الطالع يروم الاجازة الى بر العدوة ، وكانت تبدو من هناك غرناطة ومرجها (الفيجة) ونهرها (الشنيل) على ضفتيه مضروبة قباب (فرديناند) طاغية الاسبانيول وقرينته الملكة (ايزابلا) فلما تأمل أبو عبد الله رونق ذلك المنظر ، وسرَّح جواد الطرف في مسارح تلك اللمحات ، وشاهد أشجار السرو الباسقة فوق مقابر المسلمين ـ أجهش بالبكاء والعويل ، واستعبر إذ اعتبر ذهاب ذلك الملك العريض الطويل ، فقالت له أمه عائشة ، التي كانت في صحبته مع كبار الحاشية : « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » ثم هبطوا الساحل وغابت غرناطة عن أعينهم غيبة انقطاع .

وأما مغاربة أسبانية الذين أصابهم ما أصاب ملكهم أبا عبد الله من فقد الملك ، وانتثار السلك ، فقد تفرقوا شماطيط في أقطار افريقية ، فنزل منهم بنو (الزغري) غمارة بأراضي فاس التي يقال إن أصلهم منها . أما البنغاز والعباس فانتشروا بسيف البحر من وهران إلى الجزائر ، وأما بنو سراج فأقاموا بربض تونس واستعمروا هناك حيال دمن قرطاجنة محلة يمتاز أهلها عن سائر أهل المغرب بجمال الشارة ولطف الخلق .

وقد احتملت هذه العشائر الى وطنها الجديد ذكرى وطنها القديم ملء القلوب ، ولم تزل جنة (غرناطة) مصورة أبداً في مخيلاتهم ، فالأمهات يلقنَّ اسمها أطفالهن مع الرضاع ، ويهزُّنَّ بهم الأسرَّة بقصص بني الزغري وبني سراج ، وهم في كل خمسة أيام يقيمون في المسجد الصلاة والدعاء

برجوع غرناطة إلى يد الاسلام ، ويضرعون إلى الله أن يعيد إلى حزبه أرض السعادة وفردوس الدنيا ، لا يسليهم عنها من تونس الخضراء خضرة خمائل ، ولا نضرة جداول ، ولا يانع ثمار ، ولا عذب نمير ، ولا شمس هجير ، بل لم يكن عندهم خارجاً عن أبراج الحمراء ثمار طيبة ؛ ولا عيون صافية ، ولا روض ولا غدير ، ولا أقاح ولا أزاهير ، ولا شمس تستحق أن يلتفت اليها أبداً ، ولا بلدة تؤتي أكلها رغداً ، فاذا أطلع أحدٌ واحداً من جالية الأندلس على مرج (بغرادة) مثلاً هزّ رأسه ، وصعد أنفاسه ، وهتف « غرناطة » .

وكان بنو سراج على الخصوص يحفظون لوطنهم أرق وأمتن تذكار ، ويحنون اليه ولا حنين الطير إلى الأوكار ، فانهم كانوا فارقوا ميدان ذلك الجهاد ، فراق الأرواح للأجساد ، وخلت منهم تلك الأرجاء التي طالما تجاوبت أصداؤها بأصوات الشهامة والحب ، وإذ لم يبق في إمكانهم هزّ عوالي المرّان في الصحراء ، ولا التقنع بالخوذ بين جالية من الأندلس متكسبين ، وغرباء في ارتياد الرزق منتشرين ، عكفوا على درس العقاقير ، مهنة معتبرة عند العرب تضاهي عندهم مهنة عمل السلاح ، وهكذا هذه السلالة الباسلة التي كان أفرادها فيما مضى من الدهر ينكأون الجروح ، ويفرجون الهموم ، أصبحوا في تاليه يدملون القروح ، ويبرئون الجسوم وفي هذا أيضاً لم تزل على شيء من شأنها الأول لأن الفرسان كانوا بأنفسهم يضمدون جراحات الأقران ، بعد أن يصرعوهم في ساحة النزال .

وبعد أن كان لهذا البيت الكريم السراجي القصور الشاهقة الى العنان ، والصروح البالغة في تطاول البنيان ، صار يأوي إلى كوخ منفرد لم يكن في وسط قرية المهاجرين بسفح جبل (ماماليف) بل كان قائماً وسط أطلال (قرطاجنة) بسيف البحر في المكان الذي هلك فيه (مار لويس) ضجيع الرماد ، وفيه الآن فترة ناسك من عباد المسلمين ، وكان معلقاً على

حيطان الكوخ درقات من جلد أسد مصورٌ عليها في رقعة زرقاء شكل وحشين مفترسين أمامهما دبوس قد سحرا به مدينة وبجانب هذه الصورة مكتوب هكذا « متاع قليل » وهذه كانت أسلحة سمة بني سراج - وكان مصفوفاً بجانب تلك الترس بين البواتر اللامعة والخناجر البرّاقة ، أسنة معلمة باشارات بيض وزرق ، وبرانس محررة من الأطلس الخالص ، وهناك أيضاً كفوف حديدية ، ولجم محلاة مرصعة بالجواهر ، وركب ضخمة مفضضة ، وسيوف طوال الشفار ، موشيّات الغلف بأنامل بنات الأمراء ، ومهاميز من ذهب قد اصطنعت في الغابر برسم فحول الفرسان ، وعلى موائد منصوبة بجانب هذه الآثار الدالة على مجد عريق ، وحسب أصيل ، أدوات حضرية ، وآثار عيشة هادئة ، منها حشائش مقتطعة من أعراف[1] جبال الأطلس ، ومنها مقتلعة من الصحراء ، ومنها ما هو مجلوب من مرج غرناطة ، بعضها يناسب آلام البدن ، وبعضها ذو خواص تتناول تفريج هموم الأنفس . وكان المعتمد عليه والمتنافس فيه عند بني سراج ما كان منها ذا مسكة في تسكين الأشجان ، وتيسير السلوان ، والأخذ بالخواطر عن شديد التخيلات ، وكاذب الأماني التي تحيي الرجاء ولا تحققه ، الا أنه لسوء البخت كانت تتلاقى في هذه الأعشاب خواص متناقضة ، فانه كثيراً ما كان عرف نبات عرفوه في وطنهم القديم أشد على هؤلاء المهاجرين الأشراف ،من السم الزعاف .

---

(١) الأعراف : مفردها العرف وهو ما ارتفع من رمال ومكان

الفصل الثاني

ابن حامد

كان قد مضى على استخلاص غرناطة من يد المسلمين أربعة وعشرون عاماً هلك في أثنائها من بني سراج أربعة عشر سرياً[1] من تأثير الأقليم الجديد في أمزجتهم ، وتقلب أحوال المهاجرة بهم ، ولا سيما شدة الحزن الذي لا مثيل في هدّ القوى الانسانية الباطنة ، ولم يبق من هذا البيت الأثيل[2] ، سوى فرع واحد كان رجاء آله الوحيد ، وسند قومه الوطيد ، واسمه (ابن حامد) وهذا هو ابن السراجي الذي رماه بنو الزغري بمغازلة الملكة فهيمة ، كان جامعاً في نفسه الجمال الزاهر ، والإقدام الباهر ، والأدب الغض ، الى كرم العنصر وشرف المنزع ، مع الرقة في الابهة ، والتواضع في الجلال ، تلوح على معارفه ملامح الحزن اللائحة على من تجمل واعتزم في احتمال غدرات الزمان ، لم يكن له من العمر عند وفاة أبيه سوى اثنين وعشرين ربيعاً ، فنوى السفر لزيارة بلاد آبائه قضاء لحاجة في نفس يعقوب ، واتماماً لأمر اعتنى بكتمانه عن والدته ، فأبحر من جون تونس ، وجرت الفلك به بريح طيبة حتى قرطاجنة الأندلس ، وهناك وطىء البر وشمر قاصداً غرناطة ، وكان يعرف نفسه بأنه نباتي مغربي جاء لانتجاع[3] مساقط الغيث ، وارتياد التعاشيب[4] التي بين صخور شلير وغيره من جبال الأندلس ، وكان ممتطياً بغلة هادئة تسير به الهوينا حيث كان آباؤه السراجيون يطيرون على جياد مطهمة ، وجرد[5] مسوّمة ، وكان أحد الأدلاء يسير أمامه ببغلين من فاره

---

(١) السري : السيد الشريف .

(٢) الاثيل : الأصيل في الشرف .

(٣) انتجع : ذهب لطلب الشيء في مواضعه .

(٤) التعاشيب : قطع العشب المتفرقة .

(٥) الجرد : الخيل السباقة .

الحيوان ، عليها الجلاجل وغزل من الصوف مختلف الألوان ، فجاز ابن حامد في مسيره غابات النخيل المشتبك في أراضي مرسية وتأمل في قدم تلك الأشجار ، حاسباً أنها غرس آبائه ، فاستشعر فؤاده الحزن وهاجت خواطره بلابل الأشجان ، ثم لم ينشب[1] أن أبصر برجاً عالياً كان يسهر فيه الحراس أيام حروب المغاربة والنصارى ، وآثار أبنية تدل صنعة بنائها على كونها عربية ، وهي أيضاً محل آخر لشجن ابن سراج الذي ما زالت تلك المناظر تولعه وتشجيه ، حتى اضطر أن يترجل عن بغلته ، وأن يتوارى ساعة وراء تلك الرسوم ، بحجة التنقير[2] عن الأعشاب ليفسح مجال الجري للدمع السجوم ، متمثلاً بقول حبيب :

ما في وقوفك ساعة من باس تبكي رسوم الأربع الأدراس[3]

ثم استأنف السير وهو مستغرق في التأمل والاذكار ، يطوي البلاد على صليل الجلاجل ، وتغني دليله المستمر على وتيرة واحدة ، لا ينقطع حداؤه الا لحث البغال بأن يناديها تارة يا جيدة يا سريعة ، ويزجرها طوراً بقوله : عدس .

وكانت على أحد جانبي الطريق قطعان من الضأن يُسيمها راع في بقاع صفراء جرداء ، وقد عرض في أثناء الطريق بعض عابري السبيل ، وكأني بهذا الطريق قد ازداد لهم وحشة ووحدة ، بدلاً من أن يزداد بهم حركة وأنساً ، وكان كل واحد من هؤلاء المسافرين متقلداً سيفاً ومتلفعاً في عباءة ، وعلى رأسه قبعة مسترخية تقنع نحو النصف من وجهه ، وكانوا في أثناء مرورهم يلقون السلام على ابن حامد رمزاً وهمساً بحيث لم يميز من سلامهم سوى لفظ الجلالة وكلمتي سيد وفارس . وعند المساء عرَّسوا في

---

(١) لم ينشب : لم يلبث .

(٢) التنقير : البحث .

(٣) كذا في الأصل ، وفي الديوان المطبوع : تقضي ذمام الأربع الأدراس .

أحد الفنادق فجلس ابن سراج بينهم غريباً بدون أن يتكأده[1] قلة احتفالهم به وتطلعهم الى زيه ، وكونهم لم يسألوه عن شيء ولا شافهوه بشيء ، وان عمامته وغنباز[2] وشكته لم تكن لتحرك منهم ساكناً ، فحيث جرى قضاء الله بأن لا تبقى تلك المملكة الفيحاء للمسلمين لم يعد في وسع ابن حامد إلا أن يعتبر ما يراه من رصانة فاتحيها ويعجب بما عليهم من السكينة والوقار .

غرناطة

على أن غاية انفعالات الفارس السراجي لم تكن هناك بل كانت تنتظره عند خاتمة مطافه ، وإلقاء عصا تسياره على باب غرناطة . وغرناطة الحمراء مبنية في سفح جبل (سيار نيفادة) الشارات[3] على رابيتين مسترسلتين صُعُداً يفصل بينهما وادٍ عميق والأبنية ممتدة على الصبب[4] من الجانبين وآخذة برقاب السفوح الى قعر الوادي على شكل يعطي البلدة للناظر هيئة الرمانة ـ ومنها اشتق اسمها اذ معنى لفظة غرناطة رمانة .

وقد أحاط بالمدينة نهران أحدهما يسمى الشنيل والآخر الدورو (أو حدره) وتحدر الأول عن مثل سبائك العسجد ، وتصبب الثاني على مثل رمال اللجين ، وبعد أن تطهرت بمياههما سفوح الأكام اجتمعا وتعانقا ، ثم انفصلا وتفارقا ، وتكون كل منهما وادياً يلتوي بجانبها التواء الشجاع ؛ وتطرد منه عيون وأقنية يسقى بها مرج غرناطة الأفيح ويطيب حفافيها الانتجاع ، وهذا المرج الذي تشرف عليه غرناطة كاسٍ من ملتف الدوح ، وفينان السرح ، وأشجار الكرم والرمان ، والتين والتوت والليمون ، حلة خضراء سندسية ، وقد حفت به جبال مدهشة المنظر ،

---

(١) كاده : منعه .

(٢) لباس لأهل المغرب .

(٣) وجبل غرناطة هو شلير من سلسلة الشارات .

(٤) الصبب : ما انحدر من الأرض .

شـائقة الملمـح ، فاذا مـر السـائـح من هنـاك وقلب طـرفـه في صحـو تلك السـماء ، وصفاء ذلـك الماء ، وتبسم ذاك الأفق واعتـلال ذلك الهـواء ، لم يتمـالك أن يستشعـر قلبـه الانحـلال ونفـسـه الالتيـاث[1] ، بـل يحس أن عواطف الرقة في هذه البـلاد تتغلب على حفـائظ الشجاعـة ، وأن مناخهـا يحل عقود العـزائم ، وينكث مفتول الشكـائم ، لولا أن من لـوازم العشق لكي يتحقق بوجوهه أن يكون دائماً بصحبة المجـد وأن تكون الـظبي خفراً لظباء الخفر ؛ وتقوم شفا الأجفان ، سياجاً دون شفار الأجفان .

في موطن الأجداد

ولما شاهد ابن حامـد عن بعد أعـالي أبراج غـرناطـة بلغ خفقان قلبـه واضطراب أعضائه أن التزم الوقوف ببغلته ثم رد يديـه نحو زوره وشخص بصـره نحو المـدينة المقـدسة والبلدة الـطيبة وبهت حـائراً صـامتاً ، فـوقف الدليل لوقوفه . وإذ كان الاسبانيول يستشِفُّون بسهولة العواطف العـالية ، والخواطر السـامية ، لاح عليه أثر الانفعال وفهم أن المغربي قد قامت قيامته عنـدما رأى وطنـه القديم ، فـالتفت نحوه ابن سـراج وشـرع في الحـديث قائلاً : « سعديك أيهـا الدليـل ، واصدُقني المقـال ، فلا ريب عنـدي لقد كان ميموناً يوم ميلادك : سكـنـت فيه العواصف ، ودخل البدر في تمامـه ؛ قل لي رعاك الله ما هذه الأبراج التي تسفر كالنجوم في سـماء تلك الروضـة الغنّاء ؟ » .

فأجابه الدليل : « هي الحمراء » .

قال ابن حامد : « وما ذلك القصر الأخر ؟ » .

قال الاسباني : « هـو قصرالجنراليف[2]الذي فيـه غيضة الـريحان التي زعمـوا أن ابن سراج فـوجىء فيهـا مـع الملكـة فهيمـة ، ثم هنـالـك محلة

---

(١) الالتياث : الدوار .

(٢) أصله جنة العريف حرفها الاسبانيول فقالوا الجنراليف .

البيازين ومن الجهة الثانية الأبراج الحمر » .

فكانت كل كلمة من كلمات الدليل سهماً نافذاً في فؤاد ابن حامد ، وما أشد على المرء من الالتجاء إلى الأجنبي في الاستعلام عن منازل آبائه ، وأخذ صحاح الأحاديث عن سلفه ! ثم وقف الدليل بابن حامد عن زيادة الاستعبار والتأمل ، وهتف قائلاً له : « هيا بنا أيها السيد المغربي هيا بنا ، هكذا قضى الله فاربط جأشك ، واستثر عزمك ، ألا ترى إلى فرنسيس ملك فرانسة أسيراً اليوم في مادريد (مجريط) عاصمتنا ؟ بذلك جرى حكم الله الذي لا معقب لحكمه » ، ثم رفع قبعته ورسم اشارة الصليب على صدره وزجر بغاله ومضى ، وعندها حثحث السراجي أيضاً مطيته قائلاً : « مكتوب » وانحدرا صوب غرناطة .

وفي الطريق مرًّا حذاء شجرة لسان الطير الشهيرة بالواقعة التي جرت تحتها بين موسى[1] وبين صاحب كالاترافا[2] في الكائنة الأخيرة عند خروج المسلمن من غرناطة ودارا حول البلدة متنزهين ثم دخلاها من باب البيرة[3] وصعدا الرملة ووصلا إلى مكان تكتنفه من كل جهة أبنية عربية ، وكان هناك خان مفتوح لأجل نزول مغاربة افريقية الذين كانت تجارة الحرير في مرج غرناطة تحدوهم الى هناك زرافات فذهب الدليل بابن حامد إلى ذلك الخان .

وكان ابن سراج سابحاً في لجّة الهواجس سبحاً طويلاً وقد أقضت ذكرى الأوطان مضجعه ، وزادت رؤية الأطلال توجعه وتفجعه ، فلم يذق طعم راحة في نزله الجديد ،ولا اكتحل طرفه بأثمد[4] الكرى بل اتخذ

---

(١) هو الأمير موسى بن أبي غسان (راجع كتاب خلاصة تاريخ الأندلس ص ٢٥١ وما بعدها .

(٢) قلعة رباح ، راجع كتاب خلاصة تاريخ الأندلس

(٣) احدى كور غرناطة .

(٤) الأثمد : حجر يكتحل به يعرفه علماء الكيمياء باسم انتيموان .

مألفه التسهيد ؛ وعندما عجز عن مقاومة نفسه ، ورانت على عينه يقظة حسه ، خرج في أواسط الليل هائماً على وجهه في شوارع غرناطة ، وحاول أن يعرف بالمشاهدة أو باللامسة بعض الأبنية التي كان مشايخه وصفوها له ، لعل ذلك البناء الشامخ الذي لم تكن تخفى عليه جدرانه مع اشتداد الحلك كان في الغابر منزل بني سراج ؛ أو لعلّ ذلك المكان المعتزل كان معقداً لتلك المحافل التي تباهت بأخبارها التواريخ ، وسمقت بمجد غرناطة إلى المريخ ، أو أن من هناك كانت تطلع كواكب الفرسان عليهم الحلل المطرزة ، ومن هذا الشاطىء تتقدم الأجفان بالأسلحة والرايات ، فيها المقاتلة تقذف بالحراقات ، إلى غير ذلك من تخيلات الخيلاء والتيه والمرح .

ولكن وا أسفاه ! لم يكن حول ابن حامد إلا السكوت التام بدلاً من قرع الطبول ، كأن لم يبق بعد العرب عامر ، ولم يسمر بمكة سامر ، بل بدلت تلك المدينة البكماء غير أهلها ، وجلس الغالب مكان المغلوب خلي البال ، لا يبيت بأوجال ، لذلك قال الفتى المغربي لنفسه استفهام انكار : « أفينام إذاً هؤلاء الاسبانيول الطغاة تحت السقوف التي طردوا من تحتها أجدادي ، وأنا ابن سراج آرق غريباً ذليلاً ، وحيداً مجهولاً ، على أبواب قصور آبائي وأجدادي ؟ ان ذلك لخطب عظيم » .

ثم أخذ ابن حامد يتأمل في مصاير الأمور البشرية وعثرات الجدود وسقوط الممالك وتصاريف الأحوال وفي شأن غرناطة هذه التي دهمها الأعداء أعظم ما كانت مَنَعَة وارفغ[1] عيشاً ، وبدّلها بأكليل زهرها أصفاداً من حديد ، فامتثل أمام عينيه أهلها مهاجرين أوطانهم بأثواب الاحتفال كالمدعوين إلى عرس حافل شبت في محفله نار فازدحموا للخروج وأفلتوا وهم يتعثرون بأذيال زينتهم .

فكانت أشباه هذه الأشباح تزدحم في مخيلة ابن حامد ولم يكن له همٌ

(١) أرفغ عيش . أوسع عيش وأهنأ .

لما كان بالغاً به من الوجد والبث سوى اتمام المقصد الذي ساقهُ إلى زيارة غرناطة . وبينما هو على هذه الحال إذ راعهُ فلق الصبح وهو يتعسف الجوادَ وقد بعد عن الخان وصار إلى ربض متراخ عن المدينة ، والكل رقود ، والأبواب والمنافذ مغلقات ، ولا يُحسُّ في الشوارع ركز[1] ، ولا تسمع نبأة[2] إلا صياح الديك ، فقد صار يرتفع من بعض بيوت الفقراء منبهاً الناس لمعاودة الكد والشغل .

النصرانية الحسناء

وبعد أن هام ابن حامد طويلاً لا يهتدي إلى الطريق ، ولا يأتنس برفيق سمع حركة باب ينفتح ، واذا بغادة حسناء رائعة الشباب ، ناعمة الاهاب[3] ، أشبه في ثيابها ببنات ملوك القوط المنقوشة صورهن على جدران أديرتنا القديمة :

لها منظرٌ قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب

متوشحة بصدارة من المخمل الفاحم قد شدَّت به رشيق قوامها ، وقصر سراويلها الضيق الخالي من الثنايا يكشف نعمة الساق ولطافة القدم ؛ وكان على رأسها عصابة تمسكها باليد اليسرى سوداء ملتفة دائرة إلى ما تحت الذقن بحيث لم يكن يرى من وجهها كله سوى أحداقها النجل وثغرها الألمي ، وكانت معها مهذبتها وتابع يحمل بين يديها كتاباً دينياً ، ووراءها اثنان من الوصفاء يتبعانها عن بعد ، وهي ذاهبة إلى صلاة الصبح في دير قريب ابتدأ قرع ناقوسه .

بأبي من همتُ فيهِ سحراً يتهادى كنسيم السحرِ
اقبل الصبح ضياء ساطعاً فأضاء والفجر لم ينفجرِ

---

(١) الركز : الحس .

(٢) النبأة : الصوت الخفي او هي صوت الكلاب .

(٣) الأهاب : البشرة ـ الجلد .

واستعار الروض منهُ نفحة بثها بين الصبا والزهر
أيها الطالع بدراً نيراً لا حللت الدهر الا بصري

فلما وقعت عليها عين ابن حامد خيل اليه أنها الملك اسرافيل ، أو حوراء من قاصرات الطرف غفل عنها رضوان ؛ ففرت من الجنان ، وقد حركها منه ما حركه منها ، ورأى بعينها ورأت بعينه ، وأخذت ترنو إلى ابن سراج وعمامته وطيلسانه وأسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلعته رونقاً وجلالاً ، ثم ثابت من دهشها الذي أصابها لأول وهلة فأشارت إلى ذلك الغريب الديار أن يدنو منها وقالت له بلطافة وهشاشة تمتاز بها نساء تلك الأحياء : « أيها السيد المغربي يظهر لي أنك قادم جديداً إلى غرناطة وربما كنت أضعت الطريق » .

فأجابها ابن حامد : « ايه يا مليكة الجمال وملك الجنان ونعيم العيون والنصرانية الحسناء التي فاقت عذارى الكرج لقد أصبتِ فاني غريب بهذه البلدة قد ضللتُ الطريق ما بين هذه القصور فلم أهتدِ الى خان المغاربة أسأل الله بحرمة محمد (ﷺ) أن يستعطف قلبكِ ويجزيك عن كلامك خيراً » .

أجابت الاسبانية : « ان المغاربة موصوفون بالكياسة والأدب ، فأنا لستُ مليكة الجمال ولا حسناء ، اتبعني أيها الفارس فإنني ذاهبة بك إلى خان المغاربة » . ثم تقدمته ومشت إلى أن وصلت به إلى باب الخان ودلته عليه باليد ثم رجعت من وراء مصنع هناك وتوارت عن العين .

(١) اسرائيل : ملك من رؤساء الملائكة ، يقرأ قضاء الله على اللوح المحفوظ ، وينفخ في الصور يوم القيامة فيبعث الموتى .

الفصل الثالث

خفقات قلب

انتقلنا من ألم إلى ألم آخر ولا راحة في الدنيا وانما هي سلسلة آلام . الآن ليس الوطن وحده هو الشاغل قلب ابن حامد ؛ وغرناطة لم تعد في عينيه كما كانت قفرة مهجورة عاطلة مهملة فهي الآن أحب ما كانت إلى قلبه ولكن قد ازدادت عنده حسناً جديداً تحلت به آثارها ، وامتزج الآن بذكرى الآباء جاذب جديد من حب الحسان ، وكان ابن حامد قد اكتشف المقبرة التي فيها عظام بني سراج وقرأ وتوسل وانتحب ، وأرسل الأدمع كالسحب ، ولكن مع هذا كله فتخايل أن الاسبانية الحسناء لا بد أن تكون قد مرَّت بعض الأحيان بتلك المقبرة ، فإن بقايا آبائه ليست من الشقاء بالمكان الذي كان يظنها فيه . وقد انثنى عزمه بأجمعه عن حصر رحلته في زيارة مراقد آبائه ، والبحث على ضفاف الشنيل والحدرة عن الأعشاب والنباتات منذ طلوع الشمس إلى أن تتوارى بالحجاب ، بل أصبحت الزهرة الوحيدة التي يسعى في التفتيش عنها هي النصرانية الحسناء ، وكم جدَّ وذهب تعبه سدى في معرفة قصرها ، وكم مرة عاد أدراجه على الطرق التي هداه فيها ذلك الدليل النوراني ، وكم مرة خيل له سماع صوت الجرس وصياح الديك الذي كان سمعه صباح يوم مصادفته لها حتى كان ينعطف يمنة ويسرة ويركض الى هنا والى هناك وجنة الحور العين لا ينفتح له طريقها ، وكثيراً ما لاحت له بارقة الأمل عند رؤية الغواني اللابسات مثلها ، إذ كل النصرانيات على بعد يتشابهن مع مالكة فؤاده ، ولكن ليس منهنّ من لها عن قرب باهر جمالها ، ولا ساحر لطفها ، ولعمري لقد طوَّف ابن حامد في الكنائس للظفر بمحبوبته وما زال يستقصي حتى وصل إلى قبر (فرديناند وايزابلا) وهو أعظم ما تجشمه الى ذاك الوقت من مشاق الحب .

ومن عجب أني أحن اليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

ففي ذات يوم كان يفتش عن الأعشاب في وادي حدرة ، وكان قصر الحمراء وقصر الجنراليف الى جهة الجنوب على تلك الحزون الأريضة ، وعلى أكمة لجهة الشمال محلة البيازين برياضها النضيرة ، وكهوفها التي كانت في الماضي معمورة ، وعلى الطرف الغربي من الوادي قباب نواقيس غرناطة قائمة بين أدواح السرو والسنديان ، ونحو الطرف الآخر إلى جهة الشرق تسرح العين في مشاهد مختلفة من رؤوس صخور وأديرة ومناسك وأخربة من بقايا البيرة القديمة . وعلى مسافة بعيدة من قنن جبل شلير ثم النهر المتسلسل عليه الطواحين والأشلة الثرارة ، وحنايا قناة رومانية دارسة وبقايا قنطرة من أيام العرب .

اللقاء

وكان ابن حامد قد أصبح وسطاً في حالته ، فلا هي شدة ولا هو رخاء ، ولا هي سعادة ولا هو شقاء ، فلم يكن ممن يلتذ حينئذ بالانفراد فكان يتنزه على تلك الضفاف المريعة مرخياً للنفس عنانها في ميدان الحظ ، وبينما هو يهيم بين الغياض تبع صفاً من الأشجار ممتداً على ربوة (البيازين) واذا ببيت في البرية احتفت به غيضة نارنج قد عرض له فما قرب منه حتى سمع صوت غناء وضرب آلة ، ولا يخفى أن بين أصوات الغيد وبين حركاتهن تناسباً لا يخفى على أحد دلهه الغرام ، ففي الحال قال ابن حامد : هذه غادتي الحوراء ، ثم ألقى السمع والقلب مضطرب فسمع اسم « ابن سراج » مكرراً فازداد خفقان قلبه ، وكانت تلك الناعمة تغني زجلاً قشتالياً في تاريخ بني سراج وبني الزغري فعندها استرخى ابن حامد وغلب عليه الدهش ثم وثب فوق سياج من الريحان فوقع على سرب من ظباء الأنس قد راعهن بدخوله فجأة فنفرن من كل جهة وقد ارتفعت

أصواتهن ، إلا الغادة التي كانت تنشد وفي يدها آلة الطرب فعرفته « وهل يخفى القمر » وقالت : « هذا هو الشريف المغربي » ودعت صاحباتها وسكنت روعهنّ وانقلب الذعر أنساً .

فقال لها ابن حامد : « يا حبيبة الأنس والجن لقد كنت أفتش عنك كما يطلب البدوي في الصحراء غمير الماء ، وأترقب طلعتك رقبة الساري قمر السماء في الليلة الظلماء ، والآن استمعت نغمة عودك وأنت تنشدين وقائع أبطال قومي فعرفتك برخامة الصوت وجئت واضعاً بين يديك بل تحت قدميك قلب متيمك ابن حامد » .

فقالت له الدونة بلانكه (ادماء) وكان هذا اسمها : « وأنا أيضاً كنت أنشد غناء بني سراج بذكرك إذ أنني منذ شاهدتك تصورت أن أولئك الفرسان المغاربة كانوا أشبه بك » . وعند هذه الكلمة توردت عوارض أدماء ، وجال الخمر في الماء ، وتمشى السكر في معاطف ابن حامد فكاد يرنح عليه ويقع على أقدام الفتاة الاسبانية معترفاً لها أنه هو ابن سراج ، لكنه ملك نفسه ، ولم يعزب عن ادراكه ، ولم يتسلط حبه على حلمه ، بل كان أرق من الصبابة ، وأمتن من المهابة ؛ وانه ليعرف أن هذا الاسم الشهير في غرناطة يقلق فكر الوالي ولم تكن حرب الموريسك[1] ببعيدة العهد وقدوم مثل ابن سراج في ذلك الوقت خليق بأن يحدث عند الأسبانيول ظنة . ولم يكن ابن حامد ممن يتقي غائلة أو يداري خطر الموت لكنه كان يرتعش فرقاً من الفراق ، وتستهل دموعه اذا تذكر البعد عن سليلة (الدون لذريق)[2] .

---

(١) المغاربة الذين فضلوا التنصر ظاهراً على ترك بلادهم (راجع كتاب خلاصة تاريخ الأندلس)

(٢) هو « رودريك » بطل مسرحية السيد Le Cid المعروفة واشهرها تلك التي ألفها الكاتب الفرنسي كورناي Corneille .

للمحبين من حذار الفراق عبرات تجول بين المآقي

أدماء

وكانت (الدونا أدماء) سلالة بيت يتصل نسبه بسيده (بيفار) وامرأته (شيمانة) ابنة الكونت (غوماز دو غورماس) وكانت سلالة فاتح (بلنسية) الغناء بما كوفئت به من الأعراض والغمط ونسيان الجميل من دار مملكة (قشتالة) قد وصلت إلى حد الفقر ، بل قد مسها الضر ، حتى اختفى أثرها ، ودَرَس ذكرها ، فظن أنها انقطعت من شدة اهمالها في زوايا الخمول . لكن لعهد فتوح غرناطة نال أحد حفدة آل بيفار وهو جد أدماء شهرة معظمها مكسوب غير منسوب ، وأكثرها ثمرة جده ، لا بركة جده ، فالملك (فرديناند) بعد إجلاء المسلمين أوسع له في الاقطاع من أملاك البيوت المغربية ولقبه (بدون صنتافي) فتمكن الدوق الجديد في غرناطة وتوفي في ريعان الشباب مخلفاً ولداً وحيداً وهو والد بلانكا أو أدماء .

وكان هذا الولد الوحيد يسمى (لذريق) وقد تزوج بالدونة (تيريزة دو كسيرس) فولدت له غلاماً دعي (لذريق) أيضاً لكن لقبوه (بكارلوس) تمييزاً له عن أبيه ، وتعرض (الدون كارلوس) منذ حداثة سنه لشهود الحوادث الكبار ، وممارسة الخطوب الجلائل ؛ وركوب أثباج الأخطار [1] ، فازدادت عنده بذلك رصانة طبع وصعوبة قياد مركوزتان في أصل الفطرة ، فلم يكن تجاوز الرابعة عشرة من العمر حينما صحب (كورتيز) الى غزاة المكسيك وهناك اقتعد جميع الغوارب ، وحمل نفسه على جميع المصاعب ، وشهد فجائع تلك الغزاة التي تشيب من هولها الولدان ، وحضر انقراض تلك المملكة التي هي آخر ممالك ذلك العالم المجهول . وبعد تلك البطشة الكبرى بثلاث سنين شهد في أوربا وقعة (بافيا) كأنه لم يحضرها إلا ليرى الشهامة والاقدام صريعين في الميدان أمام

---

(١) الثبج من كل شيء : وسطه ومعظمه

القضاء والقدر ، وكان مشهد عالم جديد واختراق بحار لم تكن مطروقة بعد ومقارعة الأهوال وتصاريف الحدثان قد أثرت في مخيلة الدون كارلوس الدينية ، وحالته العصبية ، فاندمج في نظام فرسان قلعة رباح وعدل عن الزواج رغماً عن إلحاح الدون لذريق والده وتخلى عن جميع ثروته لشقيقته ادماء .

وكانت ادماء البيفارية شقيقة الدون كارلوس الوحيدة ، أحدث منه سناً بمدة مديدة ، وكان والدها مفتوناً بها ووالدتها قد توفيت وكانت دخلت في الثامنة عشرة من العمر لعهد قدوم ابن حامد إلى غرناطة ، وكانت تلك الفتاة كلها فتنة وسحراً ، وطرباً وسكراً ، ذات صوت ينعش الأرواح ، ويزيد برقته على البلبل الصداح ، واذا رقصت فضحت الغصون اذا ميلتها نسمات الصباح . كانت تارة تتنزه عجلة كأنها أرميد[1] ، وطوراً تسابق الريح على متن صافن من جياد الأندلس كأنها جنية أو ساحرة فلو ظهرت في أثينا لظنوها (سبازيا) أو في باريز لنشرت ديانة دو بواتيه[2] من قبرها ، جامعة بين الأضداد من رقة الفرنسيات ، الى شدة الاسبانيات ، ممزوجة الدعابة بالوقار ، والخلاعة بالحشمة ، والطرب بالأدب ، فلا يتغلب هيام على قوة ارادتها .

الماء والخضراء والشكل الحسن

ولما ذعر الفتيات الاسبانيات بمفاجأة ابن حامد لهنَّ في الغيضة النارنجية لدى سماع الالحان الشجية أسرع الدون لذريق اليهنَّ فقالت له ادماء : « يا أبتِ ها هو ذا الشريف المغربي الذي حدثتك عنه لقد سمع

---

(١) اسم بطلة من بطلات « أورشليم المستنقذة » يجعلها الافرنج رمزاً للجمال المقرون بالشجاعة .

(٢) اسم سيدة شهيرة في فرنسا ولدت في سنة ١٤٩٩ وأبوها جان دو بواتيه وتزوجت وهي بنت ثلاث عشرة سنة من لويس دو بربزه وكان منها فهرمانة عظيمة لعبت دوراً في السياسة وكانت تلعب بهنري الثاني ملك فرنسا .

صوتي فعرفه ودخل الروضة يشكرني على ارشادي إياه الى طريقه ذلك اليوم » .

فلقي (دون صنتافي) ابن سراج لقاء قومه الاسبانيول بما اعتادوه من الرصانة في السذاجة ، فانه لا يوجد عند هذا القبيل شيءٌ من أطوار التذلل ولا يسمع من أحد منهم كلام يدل على إسفاف الهمة وتسفل النفس ، بل لسان الصعلوك المسكين منهم أشبه بلسان السيد الشريف ، والهمام الغطريف ، والسلام واحد والعادات والاصطلاحات واحدة ، وعلى قدر ما عندهم من الأمانة وحسن العهد وكرم الأخلاق والبر بالغريب ، تجد عندهم من حدة الانتقام والأخذ بالتراث والجزاء على الاساءة والخيانة ، قومٌ أولو بأس شديد ، وقلوب من حديد ، لا ينكسرون أمام البخت ، ولا يولون الادبار ، اذا لم تساعف الأقدار ، فلهم الصدر أو القبر ، لا يتصفون بفرط الدهاء ، لكن أهواءهم الشديدة وقلوبهم المشيعة ، تقوم لديهم مقام الأفكار الثاقبة ، والآراء الصائبة ، فتغنيهم نار الحميَّة ، عن نور الألمعيَّة ، وقد يكون الاسباني قضى سحابة يومه لم يكلم أنسياً ولا رأى بشراً ولا مال إلى الاطلاع ولا إلى الاستماع ولا قرأ ولا تبحر ولا قايس ولا استنبط ولكنه يجد في علو همته وسمو مقاصده وأبعاد مراميه المؤونة اللازمة لاستقبال طوارق الدهر .

وكان ذلك في اليوم الموافق يوم ولادة الدون لذريق حيث احتفلت ادماء بعيد مختصر في ذلك المجلس الأنيس بين الظل الممدود والماء العذب والنسيم العليل ، فدعا الدوق ابن حامد للجلوس بين أولئك الغيد اللاتي كنَّ متعجبات من مرأى الغريب وعمامته وجبته ، ثم جيء بطنافس حريرية فجلس السراجي عليها على عادة المغاربة ، فأخذن يسألنه عن بلاده وعن رحلته وهو يجيبهن بهشاشة وبداهة ، وكان يتكلم باللغة القشتالية الحرة حتى يظن أنه أسباني لولا وضعه الكاف موضع خطاب

الجمع وكان لفظه بتلك الكاف من اللطافة والعذوبة بحيث كانت ادماء لا تتمالك من غيرة خفية ان خاطب بها احدى صواحبها .

ثم جاء طائفة من الحشم يحملون معجون القهوة بالسكر مع مربى الفاكهة وخبز السكر المالقي ، الناصع البياض كالثلج ، اللطيف الرخص كالاسفنج . وبعد الطعام دعيت ادماء إلى رقصة كانت تفوق فيها الجميع فأطاعت بحكم الضرورة اجابة لالتماس حبائبها فلزم ابن حامد السكوت لكن عينيه تكلمتا عن فمه فاختارت ادماء رقصة ذات رمز أخذها الاسبانيول عن المغاربة وشرعت احدى الغواني تضرب على العود لحن تلك الرقصة الغريبة فعند ذلك حسرت ادماء نقابها تماماً واسدلت داجي شعرها على ناصع عنقها وعلقت بأناملها البيض فقاعات من خشب الأبنوس تدق بعضها ببعض ، هذا وثغرها وعيناها متساوية في الابتسام ، ومنظرها بحرارة فؤادها مشرق القسام ، فاندفعت تنشد الغناء المخصوص بتلك الزفنة[1] محاكية بصوتها نغمة العود وموافقة بين نغماتها ورناته ، ومضت على ذلك مدة ، فلله ما أرشق حركاتها ، وألطف سكناتها ، تارة ترفع يديها بسرعة وطوراً تخفضهما على مهل ، وأحياناً تثب وثوب النشوان بخمرة السراء ، ثم تنثني إلى الوراء انثناء من رده العياء ، ثم تلفت رأسها وتلوح كمن أرادت نداء غائب ، ثم تميل بجيد الغزال الأعفر دانية بخدها الورديّ إلى أن يخال امكان تقبيله ، ثم تنهزم وقد صبغها الحياء بعندم[2] وتعود ساطعة الوجه فتمشي مشية راسخ ، وتتقدم كالجندي الباسل ، ثم تطير على ذلك المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها وأصوات العود ، وتجود بكل نغمة يترنح لها الجلمود ، زد على هذا الموسيقى الاسبانية في طبيعتها بما اشتملت عليه من الايقاع المهيج ، والانشاد المحزن ، والغناء المتقطع ، تجمع الأضداد من فرح وشجن ، وتقرن ورقاء ايك الى هزار فنن ، فكان في هذا العزف والرقص ما فيه كفاية لتوطين

(١) الزفنة : الرقصة (٢) العندم : خشب نبات

نفس ابن سراج على الغرام ، بل ربما أثرت تلك العشرة في أربط منه جاشاً ، وأقل انتعاشاً ، وهوى ذلك الهوى بأثبت عزماً ، وأوفر حلماً ، وقد قيل :

أنا أن لم أهو غزلان النقا أيُّ فرق بين قلبي والجماد

الحب

وعند الأصيل عادوا إلى غرناطة من طريق وادي حدرة وقد فتن (الدون لذريق) من آداب ابن حامد وكياسته ورجاحته ما زاد تعلقه به وملازمته له ، حتى كان يرتاح جداً إلى مجالسته لادماء ومسامرته لها في أحوال المشرق (وكل بلاد الاسلام عند الأوروبيين مشرق) وكان السري المغربي أحب شيء اليه اجابة دعوة الدوق ، بل ثاني يوم ذلك المجلس توجه الى الصرح ، الذي فيه ادماء أضواً في عينيه من الصبح . واذا بأدماء قد أخذ منها الهوى مأخذاً شديداً مع ما كانت تظن من استحالة بلوغ الحب عندها إلى هذا الحد ، فلقد كان يظهر لها ، ان الكلف برجل مسلم غريب الوطن مجهول الأصل من البعد عن الامكان ، بحيث لم تقاتله بشيء من أسنة التوقي ولم تُقم دونه شيئاً من استحكامات الاحتياط فما راعها والا الحب جار مجرى الدم في مفاصلها ؛ فاذا أحست بسريانه في عروقها وامتزاجه بأجزاء روحها تحملت تحمل الاسباني الصابر ، وما قدرت وقوعه من الأوصاب والمصائب لم يقف بها على شفير الهلك ، ولا طالت مشاحته لقلبها ، بل قالت لنفسها: « ليكن ابن حامد مسيحياً وليحبني ولو صرت في برك الغماد »

* علقت معالقها وضَرّ الجندب * .

كذلك السيد ابن حامد كان يشعر بقوة الهوى الذي تنشب في قلبه ، والصبوة التي ترجحت طواحتها بحلمه ، فلم يحاول مدافعة تياره فاستسلم له ، وأصبحت حياته كلها فداء لادماء ، وذهب عنه ما لأجله قصد غرناطة ، نعم زادت عنده سهولة الاطلاع على ما قطع المراحل وأنضى

الرواحل من أجله ، لكن كل هم غير حب أدماء عاد لديه تافهاً ، بل صار يحذر الوقوع على علوم ربما كان من شأنها أن تغير في حالة فؤاده التي يود أن لا تتغير ، فلم يكن يطمع في مطمح ولا يطمح نظره الى أمنية ، وكان يناجي نفسه « لتكن أدماء مسلمة ولتحبني وأنا أقوم بخدمتها إلى آخر نفس من حياتي » .

في الحمراء

وكان كل من العاشقين بما هو عليه من العزم المعقود والاستعداد المتين يتوقع خلسة يبيح فيها ما في نفسه للآخر ، وكان الفصل ربيعاً فقالت ابنة الدوق لابن سراج : « أخالك الى الآن لم تتنزه في الحمراء ، ويفهم من بعض الكلمات التي بدرت منك أن أصل عشيرتك من غرناطة فلا مرية أنك عظيم الاشتياق الى مشاهدة قصور ملوكك الأولين ، وها أنا ذا عصر اليوم أكون لك اليها دليلة » .

فأقسم ابن حامد بنبيّه أنه لا يمكن أن تكون لديه فسحة أنزه من هذه ولا ندحة أعزّ عليه منها .

وعند مجيء ساعة سيرهما إلى الحمراء امتطت ابنة لذريق رمكة[1] مطيعة سريعة عودتها تسلق الهضاب وملس الجنادل اعتياد المعز ، وصحبها ابن حامد على جواد أندلسي مطهم مسروج ومزين على نمط الأتراك ، وبينما كان يركض جواده كانت جبته الحمراء تنتشر وراءه ، وسيفه الأحدب يصلصل على صهوته السامية ، والهواء يعبث بعذبة عمامته ، والناس يقولون عند مروره بهم : « هذا أمير من أمراء المسلمين تريد الدوقة بلانكة أن تهديه الى النصرانية » .

وأخذ بشارع طويل منسوب إلى أحد البيوتات المغربية الشهيرة ينتهي

---

(١) الرمكة : الفرس أو البرذونة .

إلى سور الحمراء الخارجي فاخترقا غابة من ملتف الشجر وانتهيا الى عين ثم وصلا إلى السور الداخلي قصر أبي عبد الله ، واذا بجدار عليه أبراج وله شرفات ينفتح منه باب اسمه باب الحساب ، فولجا هذا الباب ، وتقدما في طريق ضيق يلتوي بين جدران عالية ، وأطلال بالية ، ومن هناك أشرفا على دار الحب الذي مرَّد[1] (شرلكان) بجانبها صرحاً ، ومن ثمة انعطفا نحو الشمال ووقفا في ميدان أخل من جوف العير حذاء حائط بسيط الصنعة أخنى على نضارته قدم الأيام ، فقفز ابن حامد على الأرض ومد ساعده الى أدماء يعينها على النزول عن ركبتها ثم قرع الخادم باباً عتيقاً قد اعشوشبت عتبته فانفتح الباب وظهرت في الحال سرائر الحمراء ، وانبسطت دخائل ذلك البناء .

ففاض قلب ابن حامد حنيناً وتذكاراً ، وتنبهت عواطف الجنسية مع الحب ، ووقف صامتاً ساكتاً يدير لحاظه في ذلك المكان الجني ، فخيل له أنه نقل الى مدخل أحد القصور الواردة أوصافها في أقاصيص العرب من رواقات لطيفة ، وأقنية رخام بديعة ، منقوش عليها زهر النارنج والاترج ، وسوح متفرقة تعرض من كل جهة للنظر ، وعقود أبواب مستطيلة الشكل ودهاليز ذات لطافة ورونق يقصر القلم عن وصفها ، وقد كانت زرقة لازوردية تظهر خلال الاساطين المعقودة فوقها القناطر والجدران المزخرفة أشبه ما يكون بالحلل الشرقية التي تطرزها الحرم ، وبالاجمال فكانت تتألق على تلك الأماكن السحرية ، مسحة دينية ، ممتزجة بهيئة عسكرية ، وجلوة (؟) غرامية أشبه بخلوة عشق ومنتبذ مناجاة كان ملوك المغاربة ينغمسون بها في اللذات ، ويسترسلون الى النعيم قبل أن خلت منهم الديار ، وأجلوا الى ما وراء البحار :

قصورٌ خلتْ من ساكنيها فما بها ... سوى الأدْمُ تمشي حولَ واقفة الدُّمى
تُجيبُ بها الهامُ الصدى ولطالما ... أجابَ القيانُ الطائرَ المترنما

---

(١) مرد : بنى .

كـأنْ لم يكنْ فيهـا أنيسٌ ولا آلتقى بها الوفـدُ جَمْعاً والخميـسُ عَـرَمْرَمـا

فبعد هنيهة قضيا فيها العجب ولازمـا الصمت دخل العـاشقان مـركز تلك الدولة الماضية ، والسـعادة الخالية ، فطافا أولاً في بهو « السوكار » بين عرف أزاهر ، وخرير نوافر :

قصـرٌ لـو أنَّـك قـد كحُلْتَ بنـورِهِ أعمىً لـعــادَ الى المقـام بـصيــرا
وآشتقَّ من معنى الجنــانِ نَسيـمَــهُ فيكـادُ يحدِثُ بـالعـظـام نشــورا
لــو أن بـالايــوانِ قـوبـلَ حسنُــهُ مـا كـانَ شيئـاً عنـدَهُ مـذكــورا
أعيتْ مصـانِعُه على الفرسِ الأولى رفعـوا البنـاءَ وأحكمـوا التـدبيـرا
ومضَتْ على الرومِ الدهورُ وما بنَوْا لـلوكِـهـم شـبـهــاً لـه ونـظيـرا
تجـري الخـواطـرُ مـطلقـاتِ أعنــةً فيــه فتـكبــو عـن مـداه قصـورا
بمــرخـمِ السـاحــاتِ تحْسَبُ أنَّـهُ فَـرشُ المهـا وتَــوشَّـح الكـافــورا
ومحـصَّبٌ بــالـدرِّ تحسبُ تُـرْبَـهُ مِـسْكــاً تـضــوَّع نشـرُهُ وعـبـيـرا
تـستـخلفُ الأبـصـارُ مـنـه اذا أتى صبحـاً عـلى غـسق الـظلام منيـرا

ثم دخـلا قاعـة الأسـود الشهيـرة وكانت رعشـة ابن حامـد تزداد كلما توغل في الدخول فقال لادماء : « لو لم تكن سعادتي تامة بك لم يكن حزني يـوصف عند اضـطراري لـسؤالك أنت أيتهـا الاسبانيـة عن تـاريـخ هـذه الأماكن ـ أماكن بنيت لأجل النزهة ورياضة النفس وأنا . . . » .

ثم أبصر ابن حامد اسم أبي عبد الله مرصعاً بالفـسيفـساء فصاح : « يا مـولاي مـاذا أصـابـك ؟ كيف أجـدك في حـرائــك وهي خـاويــة عـلى عروشها ؟ » ثم انحدرت على خدوده دموع الوفاء والأمانة والشهامة .

فقالت له أدماء : « إن سلاطينكم الأولين أو ملوك آبائكم كانا كافرين بالنعم »

قال : « لا فرق فقد كانوا عاثري الجدود »[١] .

---

(١) الجدود : الحظوظ .

وعند هذه الكلمات أخذته أدماء إلى غرفة يظن أنها كانت هيكل الحب وهي خلوة لا تمثل في اللطافة والنيقة ؛ سقفها مدهون باللازورد ومموّه بالذهب ومزخرف بالنقوش العربية المقطعة النافذة إلى الخارج بحيث كان النور داخلاً منها كأنه من خلال نسيج من الزهر . وكان في وسط البناء حوض يتدفق ويتسلسل ومياهه تتساقط كالطل الثلثل في ودعة جوفاء من الرخام فقالت ابنة الدوق لابن حامد : « انظر إلى هذا الحوض فقد سقطت فيه رؤوس بني سراج وانك ترى الى الآن على الرخام نقط دم المساكين[1] الذين أخذهم أبو عبد الله بمجرد الظن والظاهر أنه هكذا يعاملون عندكم الرجال الذين يغازلون السذج من النساء » .

فلم يصغ ابن حامد الى قولها وجثا على ركبتيه ولثم بخشوع أثر دم آبائه ، ثم قام وصاح : « يا أدماء ودم هؤلاء الأبطال لأحبنك حب ابن سراج في ثباته ووفائه وحرارة فؤاده » .

قالت له : « تحبني اذن ؟ » ثم ضمت إحدى كفيها إلى الأخرى ونظرت الى السماء وقالت : « أما إنه لا بد أن تتأمل انك رجل مغربي مسلم عدو ، وأنا مسيحية أسبانية » .

قال ابن حامد : « أيها النبي الكريم كن شهيداً عليّ » .

فقطعت عليه أدماء الكلام وقالت له : « أي ثقة لي في يمين من يعذب إلهي (؟) هل تعلم ان كنت أحبك فمن ذا الذي أعطاك الأمان أن تخاطبني بكلام كهذا ؟ » .

فوجم ابن حامد ثم قال لها : « حقاً ما أنا الا عبدك وأنت لم تختاريني فارساً لك » .

---

(١) راجع كتاب خلاصة تاريخ الأندلس .

قالت : « أيها المغربي خفف عنك فإنما الحيلة في ترك الحيل وأنت قد قرأت فوق لحاظي سورة حبك وفهمت أن جنوني بك فوق كل حد ، الا فكن مسيحياً وأي مانع من أكون لك ؟ لكن اعلم أنه ان كانت كريمة (دوق صنتافي) تخاطبك بطلاقة كهذه فهي أيضاً اذا أرادت تمكنت من قمع شهوتها ولم تدع الهوى يتسلط على عقلها ودينها : ألا أنه لن يمكن عدو المسيحيين أن ينال منها شيئاً » .

فعندها أخذ ابن حامد بيدها وقد استطار الحب لبه ووضعها أولاً على عمامته ثم على قلبه قائلاً : « ان الله على كل شيء قدير وابن حامد سعيد » ثم قال : « عرف أيها الرسول هذه النصرانية دينك القيم ونور قلبها بنورك ولا شيء يمكنه . . . »[1] . فقطعت عليه أدماء وقالت له : « لنخرج من هنا » .

ثم اتكأت على ذراع المغربي وتقدمت نحو حوض الاثني عشر أسداً المنسوب اليه أحد أبهاء الحمراء :

وضراغمٌ سكنتَ عرينَ رئاسةٍ ... تركتْ خريرَ الماءِ فيه زئيرا
فكأنما غشي النضارِ جسومَها ... وأذابَ في أفواهِها البلورا
أُسْدٌ كأنَّ سكونَها متحركٌ ... في النفسِ لو وجدت هناك مثيرا
وتذكَّرَتْ فتكاتِها فكأنما ... أقعَتْ على ادبارِها لتثورا
وتخالُها والشمسُ تجلو لونَها ... ناراً وألسنَها اللواحسَ نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيمُ لمائِهِ ... دِرعاً فقدَّر سردَها تقديرا

---

(١) هذا الكلام من مؤلف القصة الفرنسي مبني على ما يظن بالمسلمين من أنهم يطلبون من النبي ﷺ ما يطلب النصارى من المسيح عليه السلام أو من القديسين . والحق أن المسلمين لا يطلبون الهداية لأنفسهم ولا لغيرهم الا من الله تعالى القائل في كتابه لنبيه ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ .

ومصفح الأبواب تبرأ نظّروا بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وكأنما للشمس فيه ليقةٌ مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه محزمٌ بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءةً تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم قالت له : « أيها الغريب ما رأيت ثوبك وعمتك وشكتك وخطر في بالي الحب الذي بيننا الا وخيل لي ذلك السراجي الغيسان في هذه الخلوة مع سيئة البخت الفهيمة ، فسر لي الكتابة العربية المحفورة على مرمر هذا الحوض » فقرأ ابن حامد هذين البيتين :

من بنات الملوك تخطر في الرو ض كغصن عليه بدر تجلى
قلدت جيدها اللآلي وما كا ن المحلي والله غير المحلى[1]

وهناك أبيات أخر ممحوة بتقادم العهد فقال ابن حامد : « كانت هذه الكتابة لأجلك يا مليكة الحسن الباهر ، وهذه القصور في شبابها لم تكن في الرونق التي هي عليه الآن في خرابها . اصغي الى خرير الماء الذي مال بمجراه الطحلب ، انظري الى الجنان التي تلوح من خلال هذه الحنايا المتهدمة ، والمحي كوكب الصبح الذي يغرب وراء هذه الأبواب . تالله ما أحلى الطواف معك في هذه المقاصير التي تتعطر بأنفاسك كما تتأرج بأعراف الورد ! ما ألذ حديثك الذي أجد فيه بعض نغمات من لسان آبائي ! مرور ثوبك على المرمر يحرك كل عرق في فؤادي . إني لأجد النسيم معطراً بمس غدائرك ، وأرى لك جمال الحور العين في هذه الجنان . لكن هل لابن حامد أن يتصرف بقلبك ؟ من تراه هو عندك ؟ لقد أتهم وانجد[2]

(١) البيتان للمترجم .
(٢) أتهم وأنجد : اي قصد تهامة ونجد .

وعرف خواص أعشاب البرية لكن ليس منها عشبة واحدة تشفيه من الجرح الذي جرحته . هو يحمل السلاح وليس بفارس . كنت أقول لنفسي سابقاً ان ماء بحر الراكد في جوف صخرة بعيدة سالم من العواصف حال كون كل ما يجاور البحر الكبير ألعوبة للريح ، فأنت يا ابن حامد اعتزل الناس تكن ذا عيشة راضية ، وتعش مجهولاً في زاوية من الأرض لا تتصرف بك الحوادث ، وحواشي الملوك تلعب بهم العواصف وتلقى ريحهم كل إعصار . كنت أناجي نفسي بمثل هذا يا أخت الروم لكن حققت لي أن الأعاصير تعصف أيضاً بنقطة الماء المجهولة في جوف الصخرة البعيدة » .

وكانت أدماء كلها أذناً لهذا الكلام الذي لم تسمعه من قبل وكانت أساليبه الشرقية ومناهجه العربية تتآخى في غرابة المنحى ولطافة الذوق مع المكان الذي كانا يدوران فيه اذ المصدر واحد ، فاجتمع عندها الشرق كله بياناً ، وبنياناً واتسقت لديها القريحة العربية مقاماً ومقالاً ، وكان الحب يلج قلبها من كل جانب وينيخ عليها بقوته حتى صارت تشعر باصطكاك ركبتيها ووهن عزمها عن القيام ، وأخذت تميل بكل ميلها على حبيبها ، فكان ابن حامد يحتمل بارتياح هذا الحمل اللطيف ويردد أثناء مشيه :

« * يا ليتني كنت فتى سراج * » .

قالت له أدماء : « اذا لم تكن عندي كاليوم بل كان عذابي أشد ابق مجهولاً عندي وعش لأجلي فكم من فارس شهير نسي الحب لأجل الشهرة (وكم ممن نسي الشهرة لأجل الحب) وقدم المجد على الوجد » .

قال ابن حامد : « لا تخافي هذا » .

قالت : « وكيف كان يمكن أن تهواني لو كنت سراجياً ؟ » .

أجاب : « نعم كنت أحبك حباً فوق المجد ولكن دون الشرف » .

وكانت الشمس آذنت بالغروب أثناء نزهة العاشقين بعد أن طافا بالحمراء كلها متخاصرين كما قال :

ثم خاصرتها إلى القبة الحمـ ـراء تمشي في مرمر مسنون
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغـ ـوّاص ميزت من جوهر مكنون
واذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون

فلله كم هاج مرأى تلك القصور من أشجان ابن سراج ، واستورى من زند تذكاره شرر الالتهاب ، خصوصاً عندما كان يتصور الملكة فلانة جالسة في هذا البهو يرتفع اليها من مخارم الرخام دخان مجامر الطيب ونوافج[1] المسك ، وفلانة الأخرى متبرجة بجميع حلي المشرق تتهادى بين الرياحين والازهار ، هذا وادماء التي يعبدها عبادة المسيحي للعذراء كانت هي نفسها تقص عليه تلك الأقاصيص .

ثم طلع القمر فنشر حلته البيضاء على تلك الابهاء ، ورسمت أشعته الفضية على نبات الحدائق وجدران المقاصير تخريم الأبنية واعطاف السواري ، وظلّ الماء الجاري ، وحركات الأغصان المائسة بمرور النسائم ، وكان لذلك ، منظر يأخذ بالأبصار ، والهزار يفرد في رأس شجرة سرو باسقة فوق قبة مسجد بال والصدى يجاوب ، فكتب ابن حامد في ضوء القمر اسم أدماء على مرمر مملس في قاعة الشقيقتين نقشه بأحرف عربية ليزداد الزائر المتنزه سراً على سر في هذا القصر الكثير الأسرار .

فقالت أدماء : « ما أشد هذه النزهة عليّ ! لنخرج من هذه الأماكن ، آهٍ ابنَ حامد لقد تقررت حالتي في هواك وقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فاحفظ مني هذه الكلمات : أنا حبيبتك وخليعة[2] فيك ولا أبالي ؛ فان تنصرت فأنا حليلة لك سعيدة بك ولا أبالي » .

أجابها ابن حامد : « وأنا عبدك الحزين فان أسلمت فأنا بعلك المجيد » .

---

(١) النوافج : مفردها النافجة : وعاء المسك ، الجلدة التي يجتمع فيها المسك .

(٢) الخليعة : المرأة التي لا آمر لها ولا ناهي تفعل ما تشاء .

عهد الوفاء والفراق

ثم خرج العاشقان النبيلان من ذلك المكان الخطير ، وصار هوى أدماء يشتد يوماً عن يوم ، وغرام ابن حامد يتزايد بدرجته ، وكان في نفسه معجباً جداً بكونه معشوقاً لذاته لا لسبب آخر ، وان الذي أمال من غصن كريمة (الدوق صنتافي) لم يكن ناشئاً عن علة خارجية فانه لم يكشف لها سر محتده ، وكان يجد لذة لطيفة أن لا يعرفها باسمه الشريف إلا بغتة يوم ترضى به بعلاً ، لكن ما عتم أن ورد عليه كتاب من تونس ينبئه أن والدته قد أصيبت بمرض معضل وقد أشفت فتريد عناق ولدها والرضى عنه قبل مفارقة الحياة ، فجاء ابن حامد الى قصر أدماء وقال لها : « مولاتي ان والدتي على شفا جرف الحياة وهي تدعوني لأجل أن أغمضها بيدي فهل أنت حافظة في المغيب ودادي ؟ » .

قالت له أدماء : « تفارقني أصفر اللون فهل أنا مشاهدتك بعد ؟ » .

فقال لها ابن حامد : « اتبعيني أبتغي منك يميناً لا يحل عقده الا الموت » . فخرجا ووصلا الى مقبرة كانت للمغاربة وهناك أعمدة صغيرة مطروحة كأعجاز نخل منقعر من أعمدة الضرائح على شكل عمائم العرب ؛ لكن الاسبانيول تبدلوا الصلبان بالعمائم ، فجاء ابن حامد بمولاته الى ما بين هذه العمد وقال لها : « ههنا مراقد آبائي أقسم لك بعظام أولئك العظام أني أحفظ حبك الى يوم يبعثون ، الى يوم يدعوني الملك الى الحساب الأخير ، أعدك أنني لا أدخل قلبي حب سواك ، وانني أتخذك زوجاً لي حالما يستنير قلبك بنور محمد ﷺ ، وفي كل عام أعود الى غرناطة في مثل هذا الفصل لأعلم ما اذا كنت لم تسلي ودي ، ولم تخفري عهدي ، وكنت أقلعت عن ضلالك القديم » .

قالت أدماء : « وأنا أنتظرك في كل عام وأحفظ لك الى الرمق الأخير من عمري العهد الذي عاهدتكه وأتخذك بعلاً لي حينما يكون رب

النصارى الذي هو أشد حولاً من حبيبتك قد تمكن من جذب فؤادك » .

ثم ودع كل منهما الآخر وللبكاء والعويل حديث طويل ، وركب البحر فألقته الرياح على شواطىء افريقية .

في كنف الله وفي حفظه ... مسراك والعَودُ بعزم صريح
لو جاز أن تسلك أجفاننا ... كنا فرشنا كل جفن قريح
لكنها بالبعد معتلة ... وأنت لا تسلك الا الصحيح

فوجد السيدة والدته قضت نحبها ، فأخذ يبكيها ويندبها ويقبل نعشها .

الفصل الرابع

العودة واللقاء

مضت على ذلك الأيام ودرجت الليالي وهو يهيم تارة بين أطلال قرطاجنة ويجلس طوراً مطرقاً فوق قبر مار لويس ملك الفرنسيس (دار ابن لقمان التونسية) ولا يزال ينتظر أوان رجوعه الى غرناطة حتى جاء ذلك الموعد فامتطى ابن حامد قرا[1] سفينة أدار سكانها حول مالقة .

فحدث ما شئت عن بهجته وطربه وخفقان فؤاده عندما لاحت له أنوف بر اسبانية فهل يا ترى أدماء تترقب طلوعه على تلك الأرياف ؟ أو هل تذكر ذلك العربي الذي بقي متيماً أثرها متبولاً تحت نخيل الصحراء ؟ نعم ان ابنة الدوق لم تخفر عهده بل سألت والدها أن يصحبها الى ثغر مالقةوكانت من أعالي الجبال المشرفة على البحر تتبع بأبصارها قاصي السفين والأشرعة التي تبدو آونة وتخفى ، فاذا هاج عاصف أخذت تراقب البحر بوجل المحب على المحبوب ، فكانت تود لو تتجلبب حجب الغيم وتقتعد بساط الريح ، وتؤثر التعرض للخطر الأكيد ، وتهوى السباحة في ذلك البحر الهائج الذي يخشى منه على حياة الحبيب ، فاذا رأت طائر البحر مصفقاً يرف على وجه المياه قاطعاً نحو افريقية حملته من كلمات الحب ودعاء الهيام ما لا يوزن بميزان ، وزودته من عبارات الغرام المرسلة على السجية ما لا يخرج منه معنى منتظم لا يصدر الا عن قلب توقدت فيه نيران الجوى .

وبينما هي ذات يوم تتنزه على الرمل اذ أبصرت من بعيد ، فلكاً مستطيلة عاليةالجؤجؤ[2] مائلة الصاري ، عرفت من قلاعها ولطف صنعتها أنها من سفن المغاربة ، فأسرعت أدماء الى المرسى وإذ بالفلك

---

(١) القرا : الظهر . (٢) الجؤجؤ (من السفينة) : الصدر .

المغربية قد دخلت الجون والبحر يرغي تحتها ويزبد من سرعة الجري ، وكان سيد مغربي نبيه الثوب بادي السراوة واقفاً على مقدم السفينة ووراءه زنجيان ماسكان بلجام جواد عربي كريم كان انتفاخ منخريه وانتشار معرفته دليلين على حدة طبعه وذعره من جلبة الأمواج ثم وصلت السفينة وخفضت شراعها ولصقت بالمرفإ وهوت بأحد حرفيها فقفز السيد المغربي الى البر وقد سمعت صلصلة سلاحه ، واخرج الزنجيان الجواد المتنمر يصهل ويجمز عند وصوله إلى البر ، ونزل عبيد آخرون معهم زنبيل فيه ظبية عفراء بين سعفان نخل ، ساقاها الدقيقان مربوطان ومطويان تحتها خوفاً من أن تنكسرا من ارتجاج الفلك وكان في جيدها عقد من حب عود الند ، وعلى قطعة ذهبية تصل بين طرفي العقد محفور اسم بالعربي وطلسم .

فعرفت أدماء ابن حامدها لكنها لم تتجرأ أن تدنو منه أمام الجماعة لئلا يخونها عزمها بل انفردت وأرسلت (دوروته) احدى جواريها تقول للسراجي أنها تنتظره في قصر المغاربة ، وكان ابن حامد في ذلك الحين يطلع حافظ البلدة على أوراقه . ثم اجتمع العاشقان فلا تسل عن فرح كل بصاحبه ! وعن بهجته برؤية محبوبه مقيماً على العهد ! وكم من يمين تجددت على دوام العهد والارتباط . ثم قاد الزنجيان الحصان عليه بدلاً من السرج جلد أسود مربوط بنطاق أرجوان ، وأتي بالظبية فقال ابن حامد : « يا مليكة الحسن هذه عنز برية من بلادنا هي من الخفة واللطف بدرجتك » فحلت أدماء بيدها عقال ذلك الحيوان البديع ؛ وهو يرنو اليها كأنه يشكر صنيعها ، وكانت أدماء في غيبة ابن سراج قد ابتدأت بدرس العربي فلما نظرت الى طوق الغزالة قرأت اسمها عليه فبلل عينيها الدمع ؛ ولما فك عنها العقال ؛ كادت ساقاها لا تقيمانها من طول الاعتقال ، فاضطجعت على الأرض ، وأسندت رأسها الى ركبتي أدماء ، فناولتها سيدتها تمراً جديداً وأخذت تدلل هذه العنز البرية التي كان جلدها الرقيق

قد حفظ طيب الند وعرف الورد من تونس .

ثم سافر ابن سراج والدوق صنتافي وابنته الى غرناطة وقضى الصاحبان أيامهما بالمسرات والرغد كالسنة السابقة ، وكانا يتنزهان كالعادةوأوقاتهما بين حنين وتذكار ، وأسف على أوطان وأوطار ؛ وحب دائم ، وغرام ملازم ، بل متفاقم .

ومع هذا فكل منهما مشتد في دينه ، متين في اعتلاقه حبل ملته ، فأدماء تقول لابن حامد : « كن مسيحياً » ، وابن حامد يقول لها : « بل تحولي الى الاسلام » ، ثم ينفصلان بدون أن يذعن أحدهما للآخر .

الفصل الخامس

توما دولوترك

في السنة الثالثة كانت عودة ابن حامد الى اسبانية أوبة قواطع الطير التي تؤوب إلى بلادها حنيناً إلى أوكارها ، نعم انه لم يجد أدماء على الشاطىء تترقب قدومه ، لكنه علم من كتاب بعثت به اليه أن والدها دوق صنتافي شخص الىمدريدوان الدون كارلوس شقيق أدماء وصل الى غرناطة وكان يصحب الدون كارلوس أسير فرنسي صديق له فلما قرأ النبيل المغربي الكتاب انقبض صدره وسار من مالقة الى غرناطة وهو كئيب سيء الظن في العواقب ، وكانت الجبال تبدو له أوحش من جوف حمار ؛ وهو يلتفت وراءه الى البحر الذي اخترقه .

وكانت أدماء في غيبة ابيها لا تحسن فراق أخيها الذي كانت تحبه حباً شديداً وهو يريد التخلي عن جميع تركته لها ، وكان مقدمه عليها بعد غيبة سبع سنين ، وكان في (الدون كارلوس) جميع أعراق بيته من البسالة وحمية الأنف وعزة النفس وكأنه يقول :

لي نفس لا ترتضي الدهر عمرا ... وجميع الأنام طرا عبيدا
لو ترقت فوق السماك محلا ... لم تزل تبتغي هناك صعودا
أنا من تعلمون شيدت مجدي ... في مكاني ما بين قومي وليدا

فتاكاً سفاكاً نظير سائر فاتحي أميركا ، ديناً متشدداً كسائر فرسان الاسبانيول الذين استخلصوا الأندلس لأنفسهم بانتزاعها من أيدي المسلمين ، شديد العداوة لأهل الاسلام تراثاً عن جده الملقب بالسيد[1] .

وكان (توما دو لوترك) من آل (فواكس) البيت العريق ذي الحسب

---

(١) هو لذريق سيد آل بيفار ولد سنة ١٠٤٠ وتوفي سنة ١٠٩٩ صحب شانجه ملك قشتالة ثم الأذفنش السادس واشتهر في جهاد المغاربة وهو بطل رواية كورنيل .

الصميم المشهور بشجاعة رجاله وجمال نسائه خلفاً عن سلف والأخ الثاني لكونتة دو فواكس وللمقدام الشهير الصريع (أوده دو فواكس) سيد آل لو ترك هو الأسير الفرنسي الذي حضر بصحبة الدون كارلوس وكان توما هذا قد لقب فارساً وسلحه بيار البطل الفرنسي المشهور في تلك الغزاة المشؤومة التي هلك فيها ذلك البطل ، « غير هياب ولا وكل » ، وما لبث توما أن سقط في تلك الواقعة مثخناً وقيذاً ، وأخذ الى (بافيا) أسيراً وهو يناضل عن ملك الفرسان أو فارس الملوك الذي باء وقتئذ بخسران كل شيء « عدا الشرف » .

وكان (الدون كارلوس دو بيفار) شاهداً اقدام الشاب (لو ترك) وخوضه غمرات الموت فاعتنى بتضميد جراحاته وتكون بينهما هذا الوداد المتين الذي قلما تحصف حباله الا بين مثليهما من الأنجاد الأبطال مبنياً على قاعدتي الشرف والفضيلة ، وكان فرنسيس الأول قد رجع الى فرانسة وأبقى شرلكان في ربقة الأسر سائر الأسراء ، وحصل للو ترك نصيب من شرف صحبة سلطانه في النكبة والقيام على خدمته في الغربة ، وحيث بقي في اسبانية بعد سفر الامبراطور فقد سلم الى الدون كارلوس بعهد منه وحضر به الى غرناطة .

الغريم

فلما وصل ابن حامد الى قصر الدون لذريق وأدخل الى الغرفة التي كانت فيها كريمة دوق صنتافي استشعر قلبه ضجراً وانكماشاً لم يكن يعهدهما الى ذلك اليوم ، وذلك أنه رأى حذاء الدونة بلانكة شاباً جاثماً ينظر اليها صامت اللسان منشرح الصدر وكان ذلك الشاب مرتدياً تُبّاناً من جلد الجاموس مشدوداً بمنطقة علق بها سيفاً من طبع بيت ملك فرانسة ومشتملاً ببرنس حريري وقد تقنع بقبعة دقيقة الأطراف مظللة بالريش ، ولبس وشاحاً محزماً محلولاً على صدره يظهر عنقه من ورائه ، وهو ذو سبال

سود كلون الآبنوس الحالك تستشف منها الرجولية والبسالة مع اللطف والرقة ، وكان منتعلاً خفاً منثنياً حول رجله وله مهماز من ذهب شعار الفروسية .

وهناك فارس آخر منتصباً على رجليه متوكئاً على قائم سيفه وهو بزي الفارس الأول لكن الظاهر عليه أنه أعلى منه سناً وكانت تلوح على معارفه الحماسة والشدة مع التزمّت والوقار ، وكانت علامة الصليب الأحمر المسمى بقلعة رباح مطرزة فوق تبانه مكتوباً بجانبها هكذا « له وللملك » فلما أبصرت أدماء ابن حامد صاحت من حيث لم تشعر قائلة : « أيها الفرسان ها هو ذا المسلم الذي طالما حدثتكم عنه احذروا أن يكون له السبق فان بني سراج الأولين كانوا كلهم من هذا الطراز ولم يكن أحد يفوقهم في الأمانة والاستقامة والكياسة والشهامة » .

فتقدم الدون كارلوس نحو ابن حامد وقال له : « أيها السيد المغربي قد عرفت من والدي وشقيقتي اسمك واللائح عليك كرم المحتد وسراوة الأصل . وأنت بذاتك لك مزية اللطف والرقة ، فقريباً مولاي الامبراطور شرلكان يغزو تونس وهناك نتلاقى في مجال واسع للمجد » .

فوضع ابن حامد يده في حجره وجلس محدقاً في أدماء ولو ترك ، وكان هذا كثير التطلع كطبيعة الفرنسيس ، فأخذ ينظر الى جبة الشريف المغربي وأسلحته الباهرة ويرنو الى جمال طلعته بابتهاج عظيم ، وأما أدماء فكانت في غاية الارتياح الى مرآه والاهتشاش له وعيناها تترجمان عن ذات صدرها ، وكانت هذه الأندلسية الحسناء صادقة الوداد لا تحاول كتمان جواها ، ولا تداجي في سر هواها .

وأفرطت من وجدي به فدرى بنا ... على ساعة اللقيان من لم يكن يدري
وما الحب ما وريت عنه تستراً ... ولكنه ما ملت فيه الى الجهر[1]

(١) هذان البيتان للمعرب أيضاً .

وبعد هنيهة من سكوت علا ذلك المجلس قام ابن حامد فاستوى أمام بنت الدون لذريق ثم انحنى وانصرف فأذهل لوترك ما رأى من حالة المغربي مع أدماء وخامره عارض شك صار عن قريب يقيناً .

فبقي الدون كارلوس منفرداً مع شقيقته فالتفت نحوها وقال لها : « أدماء خبريني لماذا ظهر عليك التغير والاضطراب عند رؤية هذا الفارس الغريب ؟ »

قالت له : « يا أخي أني أحب ابن حامد ولا أبالي وان صبأ عن ديانته فأنا حليلة له » .

قال كارلوس : « ماذا تقولين ؟ تهوين ابن حامد ؟ فتاة آل بيفار تحب مغربياً مسلماً غريباً عدواً نحن طردناه من هذه القصور ؟ » .

فقالت أدماء « أيها الدون رويدك أنا أحب ابن حامد وهو يحبني وهو منذ ثلاث سنين يتركني ولا يترك دينه ، رجل فيه الشرف والشهامة والفروسية وانني لمغرمة به مولهة عليه الى آخر نفس من حياتي :

انك والاحتفال في عذلي غير مقيم زيغي ولا مَيلي
بل ان اسطعت أو قدرت فخذ من خابل سلوة لمختبل »

وكان الدون كارلوس ممن يقدر عزم ابن حامد قدره وان كان في نفسه آسفاً من هيامه في أخته ، فقال لها : « الى أين يسوقك هذا الحب فلقد كنت أملت أن صاحبي لو ترك يصير أخاً لي » .

قالت له أدماء : « أخطأت فيما ظننت لا يمكن لي أن أحب هذا الغريب ، وأما صبابتي بابن حامد فليس لأحد أن يناقشني عليها الحساب ، وأما أنت فاحفظ عهد الفروسية مع صاحبك كما أحفظ عهد الحب مع صاحبي ، لكن كن على يقين لأجل عزاء نفسك أن أدماء لا تنكح أبداً غير رجل مسيحي » .

قال لها كارلوس : « إذن فأسرتنا تتلاشى من على وجه الأرض » .

قالت : « عليك أنت باستحيائها ، وبعد فماذا يهم ولد لا تراه عينك ولا تسري اليه خلائقك ؟ انني لأخشى أن نكون آخر سلالة بيتنا ، فاننا قريبو العهد بالطبقة العامة ولا أمل لي أن ينجب لنا نسل من بعد ، لقد كان (السيد)[1] مبدأ أسرتنا وربما كان السيد آخرها » . ثم خرجت أدماء من حضرته .

المبارزة

فمضى الدون كارلوس إلى ابن سراج وقال له : « يا مغربي دع عنك أختي أو سر معي إلى البراز » .

قال له ابن حامد : « هل أنت مكلف من جهة أختك أن تستعيد العهود التي آتتها لي ؟ » .

قال كارلوس : « حاشا هي أعظم ما كانت لك حباً وبك ولهاً » .

فهتف ابن حامد : « مهلاً أخا أدماء سأنشد ضالة سعادتي كلها بين دمك ولحمك ، واظفر بأمنيتي في منيتك ، فيا سعد ابن حامد ويا يمن طائره ! قد كنت ظننت وبعض الظن إثم أن أدماء خفرت ذمتي حباً بهذا الفارس الفرنسي » .

فصاح الدون كارلوس وقد كاد يخرج من ثيابه : « وهذا هو بلاؤك أيها الغر ؛ فان (لو تركك) صديقي ، ولولاك كان الآن أخي ، وأنا أريد أن أقتص منك عن الدموع التي استذرفتها محاجر أهلي » .

قال ابن حامد : « لبيك لكن مع كوني سلالة قوم ربما يكونون قد قاتلوا آباءك ، فلست من الفرسان ولا أجد هنا من يعطيني العلامة التي تجعل برازك معي غير حطة في قدرك » .

---

(١) السيد : Le Cid .

فبهت الدون كارلوس من تنبيه المغربي ونظر اليه من طرف أخزر[1] وقد اختلط منه العجب بالغضب وقال : « ها أنا ذا أسلحك فارساً فأنت أهل لذلك » فانحنى ابن حامد أمام الدون كارلوس فعانقه وأمرَّ صفحة سيفه ثلاث مرات على منكبيه ثم قلده نفس هذا السيف الذي ربما أغمده السراجي في أحشائه ، وهكذا كان الشرف القديم .

ثم امتطى كل منهما جواده وخرجا من عمارة غرناطة قاصدين عين الصنوبر ، وكانت مبارزات المسلمين والنصارى قد جعلت لهذه العين شهرة وذكراً حقبة من الدهر .

وهناك كان مالك العباس (رحمه الله) قد تبارز مع (بونش) دوليون وصاحب قلعة رباح قد فتك بأبي يادوس، وكانت لا تزال قصد وبقايا من أسلحة الفارس المغربي معلقة بأغصان الصنوبرة ، ولم يزل ظاهراً على لحاة الشجرة بعض أحرف كتابة قديمة ، فدل الدون كارلوس ابن سراج على قبر أبي يادوس وقال له : « اقتد بهذا المسلم الفحل وخذ النصرانية أو الموت من يدي » .

أجابه ابن حامد : « أما الموت فربما أخذت وأما النصرانية فلا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ثم تحفزا وتواثبا كأنهما ليثان حردان[2] ، ولم يكن في أيديهما غير السيوف فكانا كما قيل :

إذا لرأيت ليثاً رام ليثاً هزبراً أغلباً لاقى هزبراً

وكان ابن حامد أقل مراناً على النزال من الدون كارلوس لكن مضاء نصاله المشحوذة في الشام ،وخفة جواده العربي الصريح جعلا له الرجحان

---

(١) خزرت : عينه : ضاقت فهو أخزر .

(٢) حرد : غضب فهو حرد .

على دون كارلوس ، فرمى بجواده على عادة المغاربة وقطع بركابه العريض الحاد جنب حصان الدون كارلوس الأيمن من تحت الركب ، فلما جرح الحصان هوى تحت فارسه كالبناء المشمخرّ اذا سقط ، فنهض الدون وتقدم نحو ابن حامد والسيف مشهور في يده فقفز ابن حامد عن ظهر جواده وصدم الدون كارلوس صدمة عنترية متلقياً ضربات الفارس الأسباني الأولى إلى أن تكسرت نصاله على النصال الدمشقية ، وصار الفارس المغربي هو الأعلى وانقلب الدون يحرق الأرْم[1] غيظاً ، ويبكي حنقاً وهو يصيح بقرنه : « ضرباً أيها المغربي ضرباً يطير فراش الهام . الدون كارلوس أعزل يدعوك إلى نزال أنت وكل قومك » .

قال ابن سراج : « لو تمكنت لما أبقيت علي ، أما أنا فحاشا أن يمر ببالي أن أدمي فيك جرحاً » .

وقال له يعز علي أني أراك معفراً شطراً فشطرا
واستحبي المروءة أن تراني قتلت مناسبي جلداً وقهرا[2]

ولذلك أمسكت ، وقصاراي أن أفهمك أني جدير بأن أكون أخاك وأن لا أظل صغيراً في عينك .

فلم يكن كلا ولا حتى أبصرا عن بعد عجاجة سوداء واذا بلو ترك وأدماء ممتطين عتيقين من خيل فارس تسابقان الغزلان قد أقبلا على عين الصنوبرة وقد كف القرنان وارتفع النزال ، فقال الدون كارلوس: « أنا المغلوب وحياتي من عند هذا الفارس لعلك يا أدماء أسعد مني حالاً » .

فقال لو ترك بدون عنف ولا كبر : « ان جراحاتي تأذن لي أن أرفض البراز مع هذا الفارس الكريم » .

---

(١) الأرم : الأضراس .

(٢) من قصيدة بشر تشطير محمد قبادو التونسي .

ثم قال وقد علت الحمرة وجهه : « لا أريد أن أقف على سبب ضغينتكما واستطلع سراً ربما كان فيه حتفي بل قريباً يكون غيابي عنكم داعياً للسلام فيما بينكم ، هذا اذا لم تأمر أدماء بأن أبقى بين يديها » .

قالت له أدماء :« أيها الفارس ابق ما شئت عند أخي وأنا أختك ان جميع من حواهم هذا المكان منطوو الجوانح على سلّ فتعلم منا احتمال آلام هذه الحياة الدنيا » .

وكان مقصد أدماء أن تصلح ذات بين الفرسان الثلاثة ، فرفض كل من ثلاثتهم الصلح وصاح دون كارلوس : « لا أحب ابن حامد » .

وقال لو ترك : « أما أنا فأغبطه » .

فقال ابن سراج : « أما أنا فأحترم الدون كارلوس وأرثي للو ترك ولا أحب الاثنين » .

قالت أدماء : « لنبق معاً والاحترام جالب الحب . وأسأل الله أن يجعل سبب اجتماعنا هنا منسياً إلى الأبد في غرناطة » .

التردد

على أن ابن حامد منذ الآن كما لا يخفى صار أحب إلى ابنة دوق صنتافي ألف مرة من ذي قبل فان العشق يعشق الشجاعة وأحب الناس الى الغواني الفارس الأبتع كما قيل وقد ظهر أن ابن حامد فحل بين الفحولة وانه كريم بالغ الكرم قد استحيا الدون كارلوس بعد أن كانت حياته في يده .

وكان ابن حامد باشارة خفية من أدماء قد انقطع عن القصر ريثما يكون جأش الدون قد سكن وكانت نفسه نهباً مقسماً بين خواطر المسرة والغم فانه من جهة على ثقة من حب من لا يساويها عاشق في الثبات والوفاء ، ولا تحاكي فؤادها غضاة في اللوعة والاحتراق ، ولكنه من أخرى

على يقين أيضاً بأنه لا يبلغ أمنيته الا بالصبوء عن دين قومه مما كانت تنحط تحته عزائم ابن حامد خصوصاً وانه كان قد مضى مدة سنوات بدون أن يجد لسقمه دواء ولا من علته شفاء ، فكان يخشى أن تمضي كذلك سائر أيامه .

وبينما كان مرة سابحاً في لجة الهموم وقد شفه الوجد إذ سمع قرع الناقوس إيذاناً بصلاة النصارى فخطر في باله أن يدخل هيكل رب أدماء ويستشير مرشد الطبيعة أن يفعل .

فخرج فوصل أمام مسجد قديم كان النصارى قد حولوه كنيسة فثارت فيه نوازع الدين وأطبق على قلبه الحزن ثم دخل تلك الكنيسة التي كانت في غابر الزمان معبد ربه ومسجد قومه ، وكانت الصلاة قد انتهت ولم يبق في الكنيسة أحد ، وخيم الظلام فوق تلك الأعمدة القائمة كأصول أدواح غابة متناسقة الغراس ، وكانت الهندسة العربية قد زاوجت في ذلك المكان فن البناء القوطي ولم تفقد شيئاً من طلاوتها بل زادها هذا الاقتران فخامة وضخامة تقضيان بزيادة التأمل ، ولم يكن سوى مصابيح معدودات تنير زواياالدهاليزالا أن المذبح لم يزل لامعاً بأشعة الشموع وقد تلألأ بالذهب وما رصع به من الجواهر ، ولا يخفى أن الاسبانيول يبذلون جميع ما تملك أيديهم ويجردون أنفسهم من كل نفيس لأجل زينة أماكن عبادتهم ، فتجد صورة الاله منصوبة وراء السجوف المحزمة البديعة بين أكاليل الدر وأضاميم الياقوت .

ولم يكن يوجد كرسي واحد في وسط الحظيرة بل كان مقعد من المرمر مغطى به بعض التوابيت لأجل جلوس الكبار والصغار ، فتقدم ابن حامد رويداً رويداً في صحن الكنيسة الذي كان صداه يجيب حركة مشيه ، وكان خاطره مقسماً بين الذكر والحنين بما تهيجه فيه رؤية هذا الأثر القديم الباقي عن المغاربة وبين الاحساس الذي كانت ديانة المسيحيين ابتدأت تولده فيه .

ثم وقعت منه التفاتة نحو احدى الاساطين ، فأبصر حذاءها شبحاً ساكناً جامداً ظنه تمثالاً فوق ضريح ، فدنا منه فاذا بفارس غض الشباب ريان الاقتبال جاثياً على ركبتيه يداه مشتبكتان على صدره . فلم يُنبض دنو ابن حامد منه عرقاً ، ولم يخلج طرفاً ، وكان من استغراقه في الصلاة لا يلتفت ولا ينعطف ، وسيفه بجانبه على الأرض . وقبعته المراشة موضوعة على الرخام قريباً منه . وكان يُخال انه راكز على هذه الصورة بفعل سحري ، وكان هذا الفارس هو لو ترك بعينه ، فقال السراجي عند رؤيته في نفسه : « لا بد أن يكون هذا الشاب الفرنسي ضارعاً إلى الله في استجداء بعض النعم فهذا الفارس المغوار المشهور في الوقائع خاشع قلبه أمام رب القبة الزرقاء كأضعف خلقه فلنضرع إذاً أمام رب الفرسان والفروسية والله العز والمجد » .

ولم يكد يستتم فكره حتى أبصر على ضوء مصباح أحرفاً عربية وآية من القرآن ظاهرة على الرخام تحت جبس متناثر فما أبصرها حتى وخزه ضميره ، وأظلم جو خاطره ، وأسرع الى الخروج من المعبد الذي همَّ فيه أن يخون ديانته وقومه .

وكانت المقبرة المحيطة بهذا المسجد القديم روضة من النارنج والسرو النخيل ، تسقيها عينان نضاختا ان يدور بها رواق ، فعندما أراد ابن حامد الخروج من أحد الأبواب أبصر امرأة داخلة إلى الكنيسة ومع كونها متنقبة عرف ابن حامد أنها حبيبته ابنة دوق صنتافي فاستوقفها قائلاً : « هل أنت آتية للتفتيش على (لو ترك) في هذا المعبد ؟ » .

قالت له أدماء : « يا مغربي يا مغرىً بي دع عنك هذه الغيرة التي لا معنى لها . اذا عدلت عن حبك صرحت لك فانني أعلى من أن أغشك ، وما جئت الى هنا إلا مصلية لأجلك ، فأنت وحدك الآن محط آمالي ، وانني لذاهلة عن نفسي التي بين جنبي من أجلك ، وقد كان لك احدى

خصلتين إما أن لا تسكرني بسلاف حبك ، وإما أن نعبد الرب الذي أعبده ، فأنت سبب قلق أسرتي كلها ، وأخي يبغضك ، وأبي مكبل بقيود الغم لامتناعي عن الزواج ، وأنت أفلا تنظر الى صحتي كيف تغيرت وكيف أصبح جسمي ضئيلاً كهلال الشك ؟ انظر الى هذا القبر فهو لي سكن قريب ودار أمم ، ان لم تسارع الى قبول عهدي خالصاً لدى مذبح النصارى . إن النزاع الذي طيّ جوانحي يهدم أركان وجودي ، وإن هواك الذي ولّه فؤادي لا يقوى على احتماله نحيف جسمي ، فانظر رعاك الله أيها المغربي واتق الله في أعز الناس لديك ، إن النار التي تشعل الجذوة هي التي تجعلها رماداً منثوراً :

نـاهيـكَ مِنْ حُـرَقٍ أبيتُ اقـاسي   وجـروحِ حـبٌ مـا لهـنَّ أواسِ
إمَّـا لحـظتَ فـأنتَ جُؤذرُ رملةٍ   واذا صـددتَ فـأنت ظبيُ كِنـاسِ
قـد كـان مني الحـزن غبّ تـذكُّـرٍ   اذ كـانَ منـكَ الصَّبـرُ غبُّ تنـاسِ
تجري دموعي حـين دمعك جـامدٌ   ويلينُ قلبي حـينَ قلبـكَ قـاسِ
أسمعت عـاذلـةً فهـل طـاوعتَهـا   ورأيت شـانئة فهـل من بـاسِ »

ثم دخلت أدماء إلى الكنيسة وغادرت ابن حامد مطرقاً أسفاً من كلماتها الأخيرة ، ولقد هم مرة أخرى أن يصبأ عن معتقده ، وطالما نازع نفسه وشاغب عزمه ، إلا أن حرصه على حياة أدماء كان في نفسه فوق كل حرص ومن دونه كل عزيز ، وكانت عنده علق الأعلاق ، ثم كان يناجي نفسه قائلاً : « لعل رب النصارى هو الحق وعلى كل الأحوال هو معبود نفوس شريفة عالية كأدماء والدون كارلوس ولو ترك » .

وليمة لو ترك

وكان ابن حامد تائهاً في بيداء الأفكار ينتظر بأمرّ الصبر انبلاج الصباح ليأتي أدماء فيكاشفها بما عقد عليه نيته ويتبدل بحياة غم دائم ، ودمع سائل ، عيشة راضية ؛ وحالة هادية ، فلم يتمكن من الذهاب الى قصر

دوق صنتافي الا في المساء ؛ فأخبر أن أدماء ذهبت الى قصر الجناليف حيث كان (لو ترك) قد أعدّ وليمة ، فهاجت ابن حامد خواطر جديدة ، وجد في أثر حبيبته حتى اذا أقبل عليهم توردت وجنة (لو ترك) ، وهجس في ضميره ، وأما الدون كارلوس فتلقى السري المغربي بحشمة وافرة خالية من الاعتزاز لكنها شافة عن الاعتبار .

فأحضر لو ترك على المائدة من أطيب فاكهة الأندلس وافريقية ، ومد المائدة في أحد أبهاء الجناليف المسمى بمجلس الفرسان وقد علق فيه من الجهات الأربع صور الأمراء والفرسان الذين غلبوا المغاربة مثل بيلايج والسيد وغونزلاف القرطبي ، وكان سيف آخر ملوك غرناطة معلقاً تحت تلك التصاوير ، فلما رآها بان حامد كظم غيظه ، وقال هذه العبارة فقط وهو ينظر الى هذه الصور : « نحن قوم لا نعرف التصوير » .

ولحظ (لو ترك) أن عيني ابن سراج تحملقان على الرغم من نفسه إلى سيف أبي عبد الله فقال له : « لو عرفت أيها السيد المغربي إنك مشرفي بقدومك إلى هذه المأدبة لما كنت استقبلتك هنا ، أما وان فقد السيوف ليس بعادة جديدة في الدنيا وقد رأينا أفحل ذوي التيجان يسلم حسامه في الحرب الى خصمه الظافر » .

فتنفس المغربي الصعداء وقد لفع وجهه بطرف ثوبه ثم قال : « يجوز أن يفقد ملك حسامه مثل فرنسيس الأول أما كأبي عبد الله . . . فلا !! » .

ولما أقبلت جيوش الظلام جيء بصفوف المصابيح وتبدل نسق الحديث ورغبوا الى دون كارلوس أن يحدثهم باكتشاف المكسيك ، فأفاض عن أحوال ذلك العالم المجهول بفصاحة الاسبانيول واطنابهم المعهود ، وروى من مصائب مونتيزوما عجباً ، وأخبر عن أخلاق الأميريكيين وعن باهر إقدام القشتاليين وعن فظائع أعمال بني جلدته غير متعرض لها بمدح ولا

جرح . وكان ابن حامد لدى سماع هذه الأحاديث يدس فيه عرق العربية من حب الأخبار والاسمار فيترنح طرباً ، ثم وصلت النوبة في السمر اليه فأخذ يصف لهم الدولة العثمانية التي كانت وقتئذ حديثة عهد بالاستواء على كرسي القسطنطينية وأما لو ترك فتكلم عن قصر فرنسيس الأول وحاشيته الرقيقة وخاصته الأكياس ، وذكر نبوغ المعارف والفنون من وسط الهمجية ، وانبلاج الأنوار من بين الظلمات وامتزاج الشهامة والشرف والفروسية من بضائع العالم القديم ، بالأدب والكياسة ورقة الحضارة من نتائج العصر الحديث ، ومثل الأبراج القوطية الغربية مشرقة بشموس اليونان ، والغواني الجليقيات يزدن نفاسة تبرجهن وزينتهن بالزي الاغريقي .

وبعد أن تجاذبوا أهداب المسامرات أراد لو ترك لهو ربة المجلس فأخذ آلة وغنى بها هذا الزجل على التلحين المعروف في جبال بلاده :

لله كم عندي من الذكر ... لقشيب عمري في ذرى وكرى
لله يا أختاه ما أحلى ... أيام أنس فرنسة تجلى
كوني بلادي علقي الأغلى
والأمُ تجذبنا إلى الصدر ... منها نقبل أبيض الشعر
هل تذكرين ليالي القصر؟ ... يا حسنه قصراً على النهر
والبرج ذاك البالي العربي ... ناقوسه المسموع عن كثب
ينبي بفجر غير ذي كذب
هل تذكرين بحيرة تجري ... قد ظل يمسح وجهها الجدري
تلوي اليراع الريح إذ تمري ... يحلو غروب الشمس في البحر
من ذا يرد عليَّ أترابي ... تلك الجبال وسرحة الغاب
تذكارها شجني وأوصابي
لا غرو في بشي من الهجر ... وطني به وطري مدى العمر[1]

(١) أصله شعر فرنسي حوله المعرب الى شعر عربي .

ولما أتم لو ترك غناء البيت الأخير كفكف بقفاز يده عبرة استذرفتها من عينه ذكرى بلاده الطيبة ، وأوطانه البهجة ، وابن حامد يقدر الوطن قدره ، ويفهم معنى فراقه ، بما يقيسه على نفسه ، اذ كلاهما غريب ، وكلاهما شاعر بألم فراق الأوطان . فطلب منه الغناء والضرب على العود فاعتذر قائلاً إنه لا يعرف إلا زجلاً واحداً ربما لا يحلو سماعه عند النصارى . فقال له الدون كارلوس : « إن كان غير المؤمنين يئنون ويتوجعون من غلبنا عليهم فلك أن تغني فان للمغلوب رخصة في البكاء » .

قالت أدماء : « نعم ولذلك ترك لنا آباؤنا الأولون الخانعون لسلطان العرب كثيراً من المراثي » .

فغنى ابن حامد هذه الموشحة التي حفظها من أحد شعراء بني سراج[1] :

انما الطاغي (جوان) قَدِما	طالعا من فوقِ أجرى فرسِ
ارتقى فوقَ الرياضِ علما	فرأى غرناطةَ الأندَلُسِ

***

بلدٌ قالَ لَهُ إذْ خطبَهْ	للولد يا حَبّذا مِنْ بلدِ
إجعَلِ المهرَ لديك قرطبه	واوليك فؤادي ويدي
وكذا اشبيلية وشاطبه	وسواها من حلي وعدد
زينة فاخرة وانعماً	درراً زاهية في الملبسِ
كلُّ ذا ابغي به مقدماً	للهوى وخلية للعرسِ

جاوبت غرناطةٌ قولاً متين	أيها الأعظم مَلك المغربِ
كن على علم باحوالي يقين	إنني قرينةٌ للمغربي

(١) روعيت مطابقة الشعر الأصلي بقدر الامكان .

دعْ هـدايـاك مَـعَ الحلْيِ الثمين المـوشى والـطـراز المـذهـبِ
انــي أغــنى وأســنى مــغــنــمــا وطـراز مـن نـفـيس انـفـسِ
ان لي أبــنــاءَ صـدقٍ كُـرمـا وحــواليَّ نــطـاقُ الحــرسِ

***

قــد كــذِبتَ وحنثتَ في اليـمــين وجـعـلتَ خـيـبـةَ في نفسٍ راجْ
وتــركتَ اليـومَ ذا العلجِ اللعــينْ حــاكــماً في مُـلْكِ ابنــاءِ سِــراجْ
هــكــذا قــدُر ربُّ الــعــالمــين لـيسَ فـيـهـا قـدّرَ اللهُ عـلاجْ
لن تــرى بعـدُ النيــاق الــرُّســما في طـريـق الحـرم المـقـدَّسْ
حـاملات الحــاج عـادوا للحمى وهــو مــن أوبــتــهــم في انسِ

حقــاً العـلجُ قـد استـولى عــلى أرضِ أبـنـاءِ سـراجٍ غَـلَبـا
ايــهِ يــا حمــراء يـا أفقَ العــلى أيهــا القصــرُ المســامي الـشهـبـا
جـنـة الـعـيـون والـعـين ولا مـثـل نهرٍ بــاللجينِ انـسـكـبـا
ان عــلجاً مــارقــاً لَــجَّ ومـا زال حـتى صـار وسط المجـلسِ
نــال مـيــراث ســراجٍ قــمــا خُطَّ ذا في الـلوح بـاري النَّفسِ

فرق لهذا الرثاء حتى قلب الدون كارلوس التارز رغـماً عمّا تضمنه من لعن الاعلاج ، وكان يتمنى اعفاءه من الغناء ، لكن تأدباً مع لو تـرك التزم الاجابة فأخذ العود من يد ابن حامد وانبـاع يترنم بمديح (السيـد) جده الأعلى :

تــأهــب الــســيــد يــبـغـي في الـعـرب غـزو الســواحـل
وقــد تـلألأ بـدراً فــي مـطلـع البـدر كـامـلْ
امــسـك عـوداً يــغــنــي أمــام شــيــمـان زاجـلْ
شـعـراً غـدا وحــيـه من ســمــا الـشـهـامـة نـازلْ
أوحــتــه شــيــمــان قــالـت لـلـغـرب فـاذهـب وقــاتــل

فاتل عداتك وارجع   للنصر والغنم نائل
لو كنت آثرت حباً   على العلى والفضائل
لكنت تعبد حسني   ولست تسمع عادل
هات الاسنة والبيـ   ـض وزرق المناصل
سيعلم القوم قلبي   وما به من شواغل
وفي القتال إذا ما   ضججتُ بالسيف صائل
يكون صوني لعرضي   وللعلى إذ أنازل
يا مغربياً تباهي   برقة في الشمائل
ضجيج صوت النصارى   على لحونك دائل
يكون يوماً لأهل أسـ   ـبانيّة أيّ خابل
فالحب والمجد فيه   كلاهما بات مائل
غداً بأعطاف وادي   أندلس في المحافل
ترى شيوخ النصارى   يروون عني الجلائل
جعلت روحي فداء   أوردت عمري الغوائل
لله والملك والمجـ   ـد وتاج العقائل
فقل ألا في سبيـ   ـل الكمال ما أنا فاعل[1]
السر

وكان الدون كارلوس عند انشاده هذه الأبيات معجباً مترنماً بصوت جهوري رنان حتى كأن السيد بعث من قبره . وأما (لو ترك) فشاطر صاحبه تلك الخيلاء وهاتيك الحماسة ، وامتقع لون ابن سراج عند سماعه اسم السيد ثم قال : « إن هذا الفارس الذي يلقبه النصارى بزهرة الوقائع هو مشهور عندنا بالقسوة والجسو فلو كان حلمه على مقدار بأسه لكان . . . » .

(١) هاتان القصيدتان هما تعريب قصيدتين فرنسيتين في الأصل بقلم المعرب .

فقطع عليه كارلوس الكلام قائلاً : « حلمه كان يفوق بأسه ولم يكن إلا لمغربي مثلك أن يهجو بطلاً اليه منتمى أسرتي وعشيرتي » .

فقال ابن حامد وقد قفز عن المقعد الذي كان مضطجعاً عليه : « هل تعد السيد من أجدادك ؟ » .

قال الدون كارلوس : « إن دمه ليجري في عروقي وانني لأعرف نفسي من هذا الدم الزكي الطاهر بما أحس به من الشنآن لأعداء إلهي وديني » .

قال ابن حامد لأدماء : « إذاً يا أخت الاسبانيول أنت من بقية آل بيفار الذين بعد فتح غرناطة أغاروا على منازل بني سراج المساكين وفتكوا بفارس منهم مسن كان يذب عن قبور أجداده » .

فصاح الدون كارلوس وقد كاد يتميز من الغيظ : « اعلم أنه لا سبيل لسؤالي وان كان في يدي الآن سلب بني سراج فإن أهلي ملكوه بثمن النجيع الأحمر ، ولم يجنوه إلا من ورق الحديد الأخضر » ..

قال ابن حامد : أستزيدك علماً لقد جهلنا بمكاننا من البعد والتغريب أن آل بيفار تلقبوا في غيبتنا بصنتافي ؛ وهذا ما أدخل علي الوهم » .

قال الدون : « نعم وان بيفار هذا غالب بني سراج هو الذي منحه فرديناند الكاثوليكي هذا اللقب » .

فأطرق ابن حامد بين الدون كارلوس ولو ترك وأدماء وهم في دهشة منه ثم انحدرت سيول الدموع من مآقيه على الخنجر المعلق بنطاقه ثم قال لهم : « عفواً ليس للرجال ذرف الدموع ، ولن تستعبر عيني بعد ، وان بقي عليها بكاء كثير ولكن اصغوا لمقالتي :

أدماء حبي لك يحكي حرارة السُموم الهابة في بادية العرب . كنت متيماً بك لا أقدر على الحياة بدونك ، وما كان بالأمس من رؤية هذا

الفارس الفرنسي مصلياً خاشعاً ومن كلماتك لي عند المقبرة كاد يحملني على الاعتراف بربك وتأدية يمين الأمانة بين يديك » .

فلم يتم ابن حامد هذه الفقرة حتى تهلل وجه أدماء سروراً ، وظهر الدهش على دون كارلوس ، وحجب لو ترك وجهه بيديه ، فعرف السيد المغربي كنه حركته وهز رأسه وتبسم ابتسام اليائسين الذي يحرق الفؤاد ويقطع الأكباد ، ثم قال : « أيها الفارس لا تصرم حبل رجائك ، وأنت يا أدماء اندبي إلى الأبد آخر بني سراج » .

ففي الحال رفع كل من أدماء والدون كارلوس ولو ترك جميعاً أيديهم إلى السماء وهتفوا : « آخر بني سراج !! » .

ثم علت السكينة المجلس وأخذت عواطف الخوف والأمل والبغض والحب والدهش والحسد كلها تتناهب قلوب الحاضرين . ثم جثت أدماء على رجليها وقالت : « أيها الرب الكريم لقد عرفت عدالة قلبي ونبل حبي فما كنت ممن يعشق الا سلالة الأبطال » .

فصاح الدون بأخته وقد أحفظه قولها: « اذكري أنك بحضرة لو ترك ».

فقال له ابن حامد : « كارلوس ! سكن جأشك فأنا وحدي منقذك مما أنت فيه ، ومريحك مما تعانيه ».ثم انعطف نحو أدماء وكانت جلست ثانية وقال : « يا حوراء الجنة وجنية الحسن سيكون ابن حامد تيماً لك إلى آخر نسمة من حياته . لكن اعلمي شدة مصابي وعظيم خطبي ، فان الشيخ الذي أجهز عليه جدك ـ وهو يناضل دون عقر داره ، ويذب عن حريمه ـ هو جدي . ثم اعلمي سراً آخر أخفيته عنك أو أذهلتني عنه وهو أني عندما جئت لأول مرة زائراً هذا الوطن كان من جملة عزمي الاستقصاء عن أحد بني بيفار أداقّه الحساب[1] عن دم آبائي الذي أهرقه آباؤه » .

---

(١) داقه الحساب : حاسبه بدقة .

قالت له أدماء بصوت حزن ورنة كآبة لكن مع جلد النفس الكبيرة : « وما هو قصدك الآن ؟ » .

قال ابن حامد : « العزم الأجدر بك أن أرد لك عهودك ومواثيقك ، وأوفيَ بغيبتي المنقطعة حقوق العداوة بين قومي وقومك ووطني ووطنك . لكن ان أمحت صورتي من فؤادك ، أو أخفى على ذكراي الزمان الذي يخفي على كل شيء ويذهب بكل شيء ، فيكون هذا الفارس الفرنسي . . . ويكون هذا الفداء كله من أجل أخيك » .

فقام لو ترك وألقى بنفسه بين ذراعي الشريف المغربي قائلاً له : « يا ابن حامد لا تظنن أنك تغلبني في المروءة والكرم ، أنا فرنسي قلدني بيار سيف الفراسة ، سفكت دمي أمام مليكي ، وسأكون مثل مولاي وأميري لا أخاف الموت ، ولا أرضى العار ، فان شئت أن تبقى في هذه الأرض رجوت لك من الدون كارلوس أن يزوجك أخته ، وان رحلت عن غرناطة فلن يزعج محبوبتك مني أنّة حب ولا زفرة جوى ، فلا تذهب ظاناً أن (لو ترك) لقلة احتفاله بالمروءة ومبالاته بالعهد طمع في الاستفادة من بلائك ، وعمد إلى الاتصال بما قطعه عندك حسن ولائك » .

وأخذ هذا الفارس يعانق ابن حامد ويضمه الى صدره بجميع ما ركب في طباع الفرنسيس من اللجاج والحرارة .

قال الدون كارلوس : « أيها الفارسان الكريمان ما كنت لأنتظر صدور أقل من هذا عن مثل سلالتكما السرية ، وأعراقكما الزكية ، لكن يا ابن حامد بأي علامة أوقن أنك حقاً قوم سراج ؟ » .

قال ابن حامد : تعلم ذلك من سيرتي :

ومن يستبن أصلي ونجدي فدونه خلائق مثل الروض كلل بالزُّهر
نقاء كماء المزن في صلب سيرتي وعفة نفسٍ دونها عفة الزُّهر

وان حيـاتي كيف حـاولت كلهـا لمعتـرك بـين الشهـامة والفخـر
فـذا بحـر أنسـابي فعـالي دليله وليس يكون الدر الا من البحر »[1]

قال الدون : « إنني لمعجب بها جداً لكن هل لك ما عدا ذلك أن تطلعني على إشارة أخرى الى نسبك الكريم ؟ » .

فأبرز ابن حامد من تحت نطاقه شجرة نسب بني سراج التي يحملها معه معلقة بسلسلة من ذهب .

فعندها مد الدون يده وصافح ابن حامد قائلاً : « أيها السيد الفارس الغطريف أنت عندي الرجل الصادق ، سلالة الملوك ، وثمالة الأبطال ، ولقد شرفتني بما كاشفتني به من أفكارك ومطوى عزمك في حق بني بيفار أسرتي ، وها أنا ذا أقبل البراز الذي كنت آتياً في طلبه فإن خرجت من البراز مغلوباً كان لك ملكاً جميع أملاكي وأموالي التي كانت من قبل أملاكك وأموالك ، فان لم تقبل البراز فاقبل أمراً آخراً وهو النصرانية مع الزواج بشقيقتي التي يتركها لوترك لك » .

فكانت التجربة عظيمة ، والاختيار عبئاً ثقيلاً ، لكنها بعد ظهور ما ظهر لم تعد فوق عزائم ابن حامد ، فانه وان كان الحب من جهة مستولياً على قلبه بجميع سلطانه القاهر ، فمن أخرى كانت تأخذه الرعدة عند تخيله المزاوجة بين الغالب والمغلوب ، والخلط بين دم القاهر ودم المقهور ، كان يتمثل خيال جده قد نشر وخرج من بين الأموات وقام يوبخه على هذا الزواج المحرم (ربما كان محرماً في شرع العداوة وأما ديناً فهو جائز في المذاهب الأربعة) ثم أحرقه الوجد فهتف : « آه يلزم أن أكون وجدت هنا أكرم الأخلاق ، وأعظم الأنفس وأزكى الأرواح ، وأشرف الخصال ، لكي أشعر بما شعرت به من ألم هذا الفراق ، لتقل أدماء كلمة عما يجب أن أفعل ليكون ذلك أخلق بحبها » .

---

(١) للمعرب .

صاحت أدماء : « عد إلى الصحراء » ورُنح عليها .

الفراق الأخير

فمال نحوها ابن حامد وتأمل فيها ساعة عكوف الوثني على الصنم ثم خرج لا يلوي على شيء ولا ينطق ببنت شفة . وفي تلك الليلة نفسها انزعج الى مالقة وأبحر في مركب متوجه ناحية وهران وعند وصوله الى هذه المدينة وجد قافلة الحاج على عزم المسير إلى مصر فالحجاز فانتظم في سَمط الحاج[1] .

وأما أدماء ففي بادىء فراقه أوشك أن يقضى عليها غماً ووجداً ، ولم يبق فيها إلا دماءٌ لكن عاد اليها الرمق من بعد . وحفظ لو ترك العهد الذي عاهد عليه ابن سراج فابتعد عنها ، ولم تسمع منه نبسة ألم ولا أمل تثير عليها كامن أشجانها ، وكانت كل عام تذهب هائمة في جبال مالقة في الفصل الذي كان حبيبها يعود فيه من افريقية وتجلس على الصخور ناظرة الى البحر والى الفلك البعيدة ، وهي تتنسم نفحات الغرب وتتنشق الريح الهابة من أرض الحبيب :

أقلّبُ طرفي في السَّماءِ تردُّداً ... لعلي أرى النَّجم الذي أنت تنظرُ
وأستعرض الركبان من كل وجهةٍ ... لعلي بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها ... لعلَّ نسيم الريح عنك يخبّرُ
وأمشي ومالي في الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاهُ من غير حاجة ... عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ثم ترجع إلى غرناطة وتقضي سائر أيامها بين بقايا الحمراء ، ثم انقطعت عن الشكوى والنحيب والكلام عن ابن حامد وربما ظنها الغريب سعيدة الحال في ذاتها ، وبقيت وحدها من آل بيتها لأن أباها مات غماً

---

(١) سمط الحاج : صفوف الحجاج .

وأخاها دون كارلوس توفي قتيلاً في براز كان (لو ترك) له فيه عضداً .

وأما ابن حامد فغاب غيبة القارظ العنزيّ[1] ولم يؤْتَ عنه بخبر ولا عرف أحد ماذا جرى عليه .

اخر بني سراج

عند خروجك من تونس من الباب المؤدي إلى أطلال قرطاجنة تجد مقبرة وتجد في زاوية من تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد أُرشدتُ اليه يقال له هناك : قبر آخر بني سراج ليس فيه شيء يستحق الصفة سوى أن في وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة حسب عادة مدافن المسلمين وماء المطر يجتمع في هذا الجرن الصغير فترتوي منه تحت تلك السماء المحرقة طير السماء :

اقصرْ سراج لا عزاءَ لمغرم ... ولا قصِّر عن دمعٍ وان كان من دمِ
أفي كل عامٍ لا تزالُ مروَّعا ... بفذِّ نعيِّ تارةً أو بتوأم
مضى أهلُك الأخيارُ الا أقلَّهم ... وبادوا كما بادتْ أوائلُ جُرْهُم[2]
فصرتَ كعشٍّ خَلَّفَتْهُ فراخُهُ ... بعلياءَ فَرْعٍ الأثْلَةِ المتهشِّم
أحبَّ بنوكَ المكرماتِ ففرقتْ ... جماعتَهم في كلِّ دهياءَ[3] صيلمِ[4]
تدانت مناياهُم بهمْ وتباعدتْ ... مضاجعُهُمْ عن تربِكَ المتنسمِ
فكلٌّ له قبرٌ غريبٌ ببلدةٍ ... فمن مُنجدٍ نائي الضريحِ ومُتهِمِ
قبورٌ بأطرافِ البلادِ كأنما ... مواقعُها منها مواقعُ أنجمِ
بتونسَ الخضراء قبرُ ابنُ حامدٍ ... بعيداً عن الباكين في كلِّ مأتمِ
تشق عليه الريحُ كل عشيةٍ ... جيوبَ الغمامِ بين بكرٍ وأيِّمِ

انتهت القصة

(١) هما القارظان : يذكر بن عَنَزة وعامر بن رهم وكلاهما من عنزة خرجا في طلب القَرَظ ، وهو ورق السلم أو ثمر السنط ، فلم يرجعا فقالوا : لا آتيك أو يؤوب القارظ .

(٢) قبيلة عربية سكنت وادي مكة أيام اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

(٣) داهية دهياء : شديدة .

(٤) الصيلم : الأمر الشديد .

ملحق كتاب

آخر بني سراج

أخبار العصر

في انقضاء دولة بني نصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدىء المعيد ، المنشىء المبيد ، الفعّال لما يريد ، الذي جرت أحكامه بمشيئته السابقة في جميع العبيد ، من اعزاز واذلال ، وإدبار واقبال ، واكثار وإقلال ، وهداية واضلال « كل ميسر لما خلق له » وجار على ما كتب له ، سبحانه وتعالى ﴿ لا يسأل عمّا يفعل وهم يُسألون ﴾ نحمده سبحانه وتعالى على كل حال ، ونشكره على جميع نعمه التي لا تحصى شكراً كثيراً دائماً لا ينقطع بانقطاع الأيام والليال ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنفرد بالعزة والجلال ، ونشهد أن سيدنا ونبيّنا ومولانا محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين والارسال [1] صلى الله عليه وعلى آله والصحب والآل[2] صلاة دائمة لا نفاد لها ولا زوال .

---

(١) لا نعلم الارسال تأتي جمعاً لرسول وانما يجمع رسول على رسل وأرسل ورسلاء ويمكن أن تكون بالكسر مصدراً لارسل أي ارسال الرسل وان تكون جمعاً لرسل محركة وهي الجماعة من كل شيء وأصلها القطيع من الابل والغنم يرسل إلى المرعى ثم عمموه في الاستعمال ففيه معنى الرسالة والارسال وفي الأساس : وجهت رسلي ارسالاً متتابعة : رسلاً بعد رسل .

(٢) لعل كلمة آله كانت سبق قلم لأنها هي التي يسبق اليها الذهن لكثرة استعمالها فلما كتب الآل لأجل السجع لم يفطن لها فيرجعها .

﴿ أما بعد ﴾ فهذا كتاب اذكر فيه نبذة من بعض تاريخ ما وقع في مدة الأمير أبي الحسن علي بن نصر بن سعد بن السلطان أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحسن ابن الملوك النصريين ، ومدة ابنه محمد وأخيه محمد أيضاً رحمهما الله ، وكيف استولى العدو على جميع الأندلس في تلك المدة ، وعولت في ذلك على الاختصار والاقتصار ، وتركت التطويل والاكثار ، لأن باعي في التأليف قصير ، وبضاعتي في الفصاحة مزجاة ، وسميته بكتاب (أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) والله الموفق للصواب وهو حسبنا ونعم الكويل .

الأمير أبو الحسن علي بن سعد يقضي على الفتنة

لما استقام ملك الأندلس للأمير أبي الحسن علي بن سعد ، ودانت له جميع الأندلس ، ولم يبق له معاند ، وذلك بعد خطوب وأحداث وكوائن جرت له مع أبيه ومع قواده بعد موت أبيه في أخبار وكوائن يطول ذكرها ، وذلك أنه كان محجوراً للقواد ، لم يكن له من الملك الا اسمه ، فأراد أن يقوم بنفسه ويزيل عنها الحجر ، فانفرد بنفسه عن قواده ، وانفرد معه بعضهم ، ووقعت بينهم حروب وأحداث ، وذلك أن قواده لما اعتزل عنهم أخذوا أخاه محمداً بن سعد وكان أصغر منه سناً فبايعوه ، واشتعلت نار الفتنة بينهم ، فأظهر الأمير أبو الحسن التوبة للناس ووعدهم ان قاموا بدعوته أن يصلح شأنهم وأن يظهر الأحكام وأن ينظر في مصالح الوطن ويقيم الشريعة ، فمالت اليه الرعية وأعانوه على ما نواه من مراده وغيرهم ، إلى أن أظفره الله بهم وذلك بعد حروب كثيرة وقعت بينهم ، وذلك ان أخاه محمداً انفلت من أيدي القواد الذين بايعوه ، وسار الى أخيه أبي الحسن ، واجتمع القوّاد كلهم في مدينة مالقة ، فحاصرهم فيها حتى أطاعوه ، فأخذهم وقتلهم كلهم ، وانقرضت الفتنة وخمدت نارها ودانت له جميع الأندلس ولم يبق له فيها معاند . وهو مع ذلك يغزو بلاد الروم المرة بعد المرة ، حتى غزا غزوات كثيرة وأظهر الأحكام ، ونظر في مصالح

الحصون ، ونمى الجيش ، فهابته النصارى وصالحته براً وبحراً ، وكثر الخير ، وانبسطت الأرزاق ، ورخصت الأسعار وانتشر الأمن في جميع الأندلس وشملتهم العافية في تلك المدة وضرب سكة جديدة طيبة .

ثم أنه أراد أن يميز[1] الجيش ، وأن يظهر للناس ما معه من الفرسان ليزيدهم في المغارم ، فهيأ موضع الميز بمدينة الحمراء من غرناطة بالموضع المعروف بالطبلة عند باب العد ، فبني مكاناً لجلوسه وأصلح الطريق والرحبة لمجال الخيل وندب الفرسان .

ثم ابتدأ يوم الثلاثاء التاسع عشر لذي حجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ، فكان أهل غرناطة يخرجون كل يوم الرجال والنساء والصبيان للسبيكة وما حول الحمراء يتنزهون ، وأقبلت فرسان الأندلس بأجمعهم من شرقيتها وغربيتها فكان يميز كل يوم عليه طائفة منهم الى يوم الثاني والعشرين بمحرم فاتح عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة ، بموافقة السادس والعشرين لشهر ابريل العجمي ، فكان من قضاء الله عزّ وجلّ وقدره في ذلك اليوم المهرجان الكبير والنزهة العظمى ، واحتفلت الناس وخرج جل أهل البلد من رجال ونساء وصبيان وشيوخ وكهول ، وجاء كثير من أهل القرى من حوز غرناطة للنزهة فاجتمعوا في السبيكة من الحمراء وما حولها ، وامتلأت تلك المواضع من خلق كثير ، وأقبلت الفرسان وساروا يتألقون في السبيكة وذلك في وقت الضحى ، فبينما الناس كذلك وإذا بسحابة عظيمة قد انشأها الله في السماء . فأرعدت وأبرقت ، وانتشرت من ساعتها بقدرة مكون الأشياء على السبيكة وما قرب منها وعلى غرناطة وما حولها وعلى وادي هدارة وجاءت بمطر عظيم ، ولم يزل المطر يزداد ويعظم ويكثر حتى صار كالأنهار العظام ، وجاءت السيول من كل ناحية ، وعظم أمرها وعاين الناس الهلاك من عظم ما رأوا من شدة المطر

---

(١) أراد يميز الجيش عرض الجيش .

وكثرة السيول ، واحتمل السيل الطرق وما حولها ، وانقطع الناس وحال السيل بينهم وبينه ، فلا تسمع إلا بكاء الصبيان وضجيج النسوان وأصوات الرجال بالدعاء إلى الله تعالى والابتهال إلى أن ارتفع المطر ، وجاء في وادي هدّارة الذي يشق غرناطة سيل عظيم احتمل ما على ضفتيه من الأشجار العظام من الميس والدردار والجوز واللوز وغير ذلك من الشجر العظام الثابتة في الأرض ، ودخل البلد واحتمل ما على ضفتيه من الدور والحوانيت والمساجد والفنادق ، ودخل الأسواق وهدم البناء المشيد ولم يبق من القناطير الا الأقواس ، وذهب بما كان عليها من البنيان ، وجاء السيل بتلك الأشجار العظام التي اقتلع فتراكمت في البلد في آخر قنطرة منه ، فسدت مجاري الوادي ، فتراكم السيل والشجر في قلب البلد ، وعاين أهل البلد الهلاك ، ودخل السيل تيارة والقيسارية حتى دخل بعض حوانيتها ، ووصل إلى رحبة الجامع الأعظم والى القراقير والصاغة والحدادين وغير ذلك من الأسواق والدور ، فلطف الله تعالى بالبلد وأهله فنفض السيل بقوة تراكمه بالقنطرة والسور وخرج ذلك كله خارج البلد ، وكان هذا اليوم من أعظم الأيام شاهد فيه كل من رآه قدرة القاهر القهار الملك العلاّم سبحانه وتعالى ولم يسمع المعمرون بمثله .

ركون أبي الحسن إلى الملذات وضعف ملكه

ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ ملك الأمير أبي الحسن علي في الانتكاس والانتقاص ، وذلك انه اشتغل باللذات والانهماك بالنساء والمطربات ، وركن إلى الراحة والشهوات ، وضيع الجند وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان ، وثقل المغارم ، ومكس الأسواق ، ونهب الأموال ، وشح العطاء . الى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك . وكان له وزير يوافقه على ذلك ، ويظهر للناس الصلاح والعفة وهو بعكس ذلك ، وكان الأمير أبو الحسن علي المذكور متزوجاً ابنة عمه الأمير الأيسر ، وكان له منها ولدان محمد ويوسف ، فمن جملة انهماكه أنه اصطفى عليها رومية اسمها

ثريا ، وهجر ابنة عمه وأولادها منه ، فأدرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على أزواجهن ، ووقع بينهما نزاع كثير ومال الأولاد محمد ويوسف مع أمهم ، وغلظت العداوة بينهم . وكان الأمير أبو الحسن شديد الغضب والسطوة ، فكانت الأم تخاف على أولادها منه ، فبقوا كذلك مدة وهو مشتغل بلذته منهمك في شهوته ، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ، ويجمع الأموال ويأتيه بها ، ويعطيها من لا يستحقها ويمنعها مستحقها ، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ، وقطع عنهم المعروف والاحسان ، حتى باعوا ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم وأكلوا ثمنها ، وقتل كثيراً من أهل التدبير والرأي والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها .

سقوط الحامة ونجدة غرناطة لها

فلم يزل مستمراً على حاله والجيش في نقص والملك في ضعف ، الى أن انقضى الصلح الذي بينه وبين النصارى ، فلم يشعر أحد حتى دخلوا مدينة الحامة ، وذلك انهم طرقوها ليلاً على حين غفلة من أهلها ، فدخلوا قصبتها وكانت خالية فلم يكن بها الا عيال قائدها فملكوا القصبة والناس نيام مطمئنون ، فلم يشعر أحد الا والنصارى قد هبطوا من القصبة على البلد بالسيف والقتل والسبي الشديد ، حتى قتل من نفذ أجله ، وهرب وفر من قدر على الفرار ، واستولى النصارى على البلد وجميع ما كان فيه من الرجال والنساء والصبيان والأموال ، وكان ذلك في التاسع من شهر المحرم عام سبعة وثمانين وثمانمائة ، فبلغ أهل غرناطة ما فعلت النصارى باخوانهم المسلمين ، فماجت الرعية وقالوا لا صبر لنا على عيش بعد هذه المصيبة العظمى إما أن نفك اخواننا أو نموت دونهم ، فاجتمعوا مع الأمير أبي الحسن ووزيره فجعل الأمير والوزير يعجزانهم عن المسير ويتربصان ويقولان نأخذ أهبتنا ونعمل على حال الحرب ، فلم تزل بهما العامة حتى أخرجوهما . فتقدم صدر الجيش فوجدوا النصارى قد أخرجوا من البلد ما

سبوا من الرجال والنساء والصبيان والأموال ، وهم قد أوقروا الدواب بذلك وهم عازمون على المسير الى بلادهم ، فلما رأوا خيل المسلمين قد أقبلت عليهم حطوا الاحمال ، ودخلوا البلد وتحصنوا بالأسوار ، ثم أقبل المسلمون بمحلتهم وقربوا منهم فقاتلوهم قتالاً شديداً بجد وعزم وقلوب محترقة حتى دخلوا بعض الأبواب من البلد وكسروه وحرقوه ، وتعلقوا بالأسوار وطمعوا في الدخول اليه ، فبينما هم كذلك إذا بالأمر من الأمير أبي الحسن والوزير بالرجوع عن القتال فأبى الناس عن الرجوع[1] . فقالا لهم : « اذا كان غداً ندخل عليهم أول النهار لأن الليل قد دخل علينا » . فترك الناس القتال ورجعوا الى محلتهم ، وبات النصارى يصلحون شأنهم ، ويمنعون أسوارهم ، ويغلقون نقابهم[2] ، فلما أصبح ، نظر المسلمون إلى البلد فاذا هو على صفة أخرى من المنعة والتحصين والاستعداد ، فصعب عند ذلك على المسلمين الدخول والدنو منه .

المسلمون يحاصرون الحامة والتقصير

ثم انهم عزموا على حصاره والاقامة عليه ، وأقبلت وفود المسلمين من كل أرض الأندلس ، واجتمع على ذلك البلد محلة عظيمة ، وفتحوا الأسواق للبيع والشراء ، وجلبوا لأسواقهم كل ما يحتاجون اليه من الأطعمة والعلف والزاد وغير ذلك ، وحاصروهم حصاراً شديداً ومنعوا لهم الماء والحطب والداخل والخارج والعامة بعزم وجد واجتهاد ونية صادقة وقلوب محترقة ، والوزير يعد الناس بالدخول والقتال وعداً بعد وعد . ويقول : « عن قريب نأخذهم عطشاً وها نحن نعمل الحيلة في الدخول عليهم » . والتقصير والتفريط والغش يبدو منه شيئاً بعد شيء ، حتى تبيّن لعامة الناس وخاصتهم ، ولاح لهم كالشمس ، وظنوا بهم ظنون السوء ،

---

(١) أبى يتعدى بنفسه وقد عداه بعن بتضمينه معنى امتنع .

(٢) النقب هو الثقب والجمع أنقاب ونقاب .

وكثر الكلام القبيح بينهم ، فعند ذلك هاج شيطان الفتنة بينهم وتحدث الناس بعضهم مع بعض في مسائل غشها للمسلمين .

المسلمون يفكون الحصار عن الحامة

فبينما الناس كذلك في إساءة ظنهم بأميرهم ووزيره ، فاذا بهما استعملا حيلة وكتبا مزورة أتتهما عن بعض من نصحهما من ناحية المسلمين المجاورين بلاد الكفرة دمرهم الله ، يعلمهما أن الطاغية ملك النصارى جمع جمعاً عظيماً ، وحشد حشوداً كثيرة ، وعزم على نصرة أصحابه المحصورين في بلد الحامة ، وهو قادم عن قريب ولا طاقة لكما بملاقاته ، فحين أعلمهم الوزير بما ذكر وخوفهم سقط في أيدي الناس وأمرهم بالرحيل والاقلاع عن دار الحرب ، فرحل الناس كرهاً باكين متأسفين بحسرة وندامة وفجعة يا لها من حسرة ، وانصرف كل واحد إلى وطنه ثم انهم أقاموا بعد ذلك أشهراً قلائل وأمر الأمير أبو الحسن بالمسير إلى بلد الحامة مرة ثانية فسار الناس اليها ، وأقبلوا من كل أرض بالأندلس ونزلوها بمحلتهم مرة ثانية وحاصروها فلم يقدروا على شيء فانصرفوا عنها وتركوها .

هزيمة فرديناند أمام لوشة

فلما رأى العدو دمره الله أن المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحامة ونصرة من فيها من الأسارى وقع له الطمع في بلاد الأندلس فأخذ في الاستعداد والخروج اليها فلما كان شهر جمادي الأولى من عام التاريخ المذكور قبل هذا خرج صاحب قشتالة بمحلة عظيمة وقصد مدينة لوشة ، فنزل عليها بمحلته وكان قد اجتمع فيها جملة من نجدة رجال غرناطين سمعوا بخروجه اليها ، فلم قرب من البلد خرج اليه الرجال والفرسان فقاتلوه قتالاً شديداً وردوه على عقبه ، وقتلوا كثيراً من النصارى ، وأخذوا لهم من تلك العدة التي قربوا بها انفاطاً وغير ذلك من عدة الحرب ، ثم

أن الأمير أبا الحسن أمدهم بقائد من غرناطة يقود جيشاً من الفرسان في تلك الليلة ، فاشتد عند ذلك عصبة المسلمين ، وقويت قلوبهم فلما أصبح ورأى النصارى الزيادة في المسلمين مع ما نالهم في أول الليل من الهزيمة والقتل وأخذ العدة ، داخلهم الرعب واشتد خوفهم وأخذوا في الارتحال عنهم ، فخرج اليهم المسلمون فقاتلوهم قتالاً شديداً فانهزم النصارى وتركوا كثيراً من أخبيتهم وأمتعتهم واطعمتهم وآلة حربهم وتركوا من الدقيق شيئاً كثيراً فاحتوى المسلمون على ذلك كله ، وانصرف العدو مفلولاً مهزوماً إلى بلده ، وكان ذلك في السابع والعشرين لجمادي الأولى عام سبعة وثمانين وثمانمائة .

انتقاض الأميرين محمد ويوسف على أبيهما ومبايعة الأمير أبي عبد الله محمد بالملك

وفي هذا اليوم بلغ الخبر لمن كان في لوشة أن ابني الأمير أبي الحسن محمد ويوسف هربا من القصبة خوفاً من أبيهما ، وذلك أن شياطين الأنس صاروا يوسوسون لأمهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما ، ويغوونها مع ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية ثريا من الشحناء . فلم يزالوا يغوونها حتى سمحت لهم بهما ، فاحتالت عليهما بالليل وأخرجتهما اليهم وساروا بهما الى وادي آش فقام أهل وادي آش بدعوتهما ثم قامت غرناطة أيضاً بدعوتهما واشتعلت نار الفتنة ببلاد الأندلس ووقعت بينهم حرب وكوائن أعرضنا عن ذكرها لقبحها لأن الأمر آل بينهم الى أن قتل الوالد ولده .

العدو يعاود الكرة ويهزم هزيمة شنعاء أمام الأمير محمد بن سعد

ولم تزل نار الفتنة مشتعلة وعلاماتها قائمة في بلاد الأندلس ، والعدو دمره الله مع ذلك مشتغل بحيله في أخذ الأندلس ، إلى أن ساعده الزمان

ووافقته الأقدار ، فلما كان شهر صفر عام ثمانية وثمانين وثمانمائة اجتمع من زعماء النصارى واقنادهم[1] جمع عظيم ، ولم يكن معهم ملكهم وقصدوا قرى بلش وشرقية مالقة يريدون أخذ أهلها وفسادها فلما وصلوا تصالح أهل تلك الجهات واجتمعوا دون فرسان وصاروا يعرضون للنصارى في المضايق والمخانق والأوعار ويقاتلونهم فيها حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً.فلما رأى النصارى ذلك جعل الله الرعب في قلوبهم ووقع فيهم الخذلان.فانهزموا في تلك القرى والمخانق والأوعار وصاروا يتهافتون فيها تهافت الذبان والمسلمون يقتلونهم ويأسرونهم،ولم تغن عنهم كثرتهم ولا عدتهم شيئاً بإذن الله ، وكان في وقت هذه الكائنة الأمير محمد بن سعد بمدينة مالقة فلقيهم فقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً وولوا مدبرين ، وأسر منهم ما ينيف على ألفي أسير فيهم جماعة من قوادهم واقنادهم ، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورجالهم وأمتعتهم.فاحتوى على ذلك كله المسلمون وحملوه إلى مدينة مالقة فجمعوه بها على أن يقسموه على كل من حضر الوقيعة[2] المذكورة.فحصل كله بأيدي الظلمة فلم يظهروا فيه حقاً لأحد ممن حضر الوقيعة المذكورة فلم ينتج لهم منه شيء وكان عليهم وبالاً ، وكانت هذه الكائنة في الحادي عشر لصفر عام التاريخ المذكور قبل هذا .

هزيمة أبي عبد الله وأسره وعودة ملك غرناطة الى أبي الحسن

وفي شهر ربيع الأول من عام التاريخ خرج الأمير أبو عبد الله محمد ابن علي بأهل غرناطة ومن حولها من الحصون والقرى إلى بلاد الروم فبينما هم في أرض اللسانة راجعون بالغنيمة إذ خرج عليهم جمع من

---

(١) العرب في أيام الحرب الصليبية وحروب الأندلس حصلت لهم اللغة بالفاظ افرنجية عربوها على هوى نطقهم من جملتها لفظة كونت وهو من ألقاب الشرف عند الافرنج دون البرنس .فنطق بها العرب كند بضم الكاف وسكون النون وقند بالقاف وجمعوها على أقناد كما ترى .

(٢) الوقيعة مثل الواقعة .

النصارى ليس بالكثير ، فانهزم المسلمون أمامهم ، واتبعهم النصارى يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى لحقوا الأمير محمداً فدخل في غمار الناس ، واختفى بينهم وجعل يقاتل مع المقاتلين حتى أسر مع من أسر من المسلمين ولم يعرفه النصارى وكانت هزيمة شنيعة قتل فيها ناس كثير وأسر آخرون واستولى النصارى فيها على كثير من الخيل والسلاح والدواب والمتاع ، وأشنع ما كان فيها أسر الأمير أبي عبد الله محمد لأنه كان سبباً لهلاك الوطن فجمع النصارى كل ما أخذوا للمسلمين من أسرى وأمتعة وحملوه الى حصن اللسانة ولم يعرفوا الأمير ، حتى عرفوا به فأخرجوه من بين الأسرى وعظموه وأكرموه وحملوه الى حصن اللسانة الى صاحب قشتالة ، فعظمه وأكرمه وعلم أن به يصل إلى ما يؤمله من أخذ بلاد الأندلس ، ثم عاد ملك غرناطة إلى الأمير أبي الحسن علي بن سعد والا فان الفتنة لم تنقطع ولم تخمد نارها .

عزل أبي الحسن وانتقال الملك الى أخيه

كان الأمير أبو الحسن قد أصابه مرض شبه الصرع ، وأصيب في بصره ، وأصابه خدر في جسده ، وعاقبه الله بأنواع من البلاء وعزل عن الملك وحمل إلى مدينة المنكب فأقام فيها حتى مات.واستولى على الملك بعده أخوه محمد بن سعد.ومع ذلك قد استطال العدو على الأندلس وقوي طمعه فيها .

سقوط بعض الحصون ومدينة رندة وجوارها في يد العدو

فلما كان شهر ربيع الأخر من عام تسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلة الى غربية الأندلس.فقصد حصن قرطمة وحصن دكوين فقاتلهما حتى استولى عليهما ، وفي السنة التي كانت قبل هذه كان أيضاً استولى على حصن المرة وحصن الشيطنين ، وفي العشر الأول من جمادى الأولى عام التاريخ المذكور قبل هذا خرج العدو أيضاً فقصد مدينة رندة ، فقاتلها

قتالاً شديداً وقرب اليها عدته وانفاطه ، حتى هدم بعض أسوارها ، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به ، طلبوا الأمان وخرجوا مؤمنين[1] بما معهم ، فلما استولى العدو على مدينة رندة دخلت تلك الجهات كلها في ذمته من غير قتال .

انتصار الزغل عند حصن المكلين

وفي التاسع عشر من شهر شعبان عام التاريخ المذكور ، قبل خروج الأمير محمد بن سعد[2] بأهل غرناطة الى حصن المكلين لبناء بعض سوره لأنه بلغه أن العدو خارج اليه ، فخرج بجيشه وعامة أهل غرناطة ليصلحوا من شأنه ما تهدم فبينما هم في الحصن بلغهم أن العدو خارج يريد الحصن ، وهو متوجه نحوه وظهر آخر النهار للمسلمين غبار محلة النصارى في أرض القلعة فلم يلتفت الأمير ولا وزيره لذلك ، ولم يعملوا حساب الحرب ، ولم يجعلوا بياتهم على البعد ، فباتوا تلك الليلة مطمئنين وهي الليلة الثانية والعشرين لشعبان ، فلم يشعر أحد من المسلمين الا والنصارى قد اختلطوا معهم عند الفجر ، وكذلك النصارى لم يشعروا بالمسلمين حتى اختلطوا معهم ، وانما أدلجوا ليصبحوا على الحصن ، فلما التقي الجمعان أعلنت الأصوات بالصياح والضجيج ، وضربت النصارى أطبالهم والبوقات ، ونصبوا الأنفاط ، ووقع القتال بين الفريقين ، واشتد القتال حتى وصل النصارى إلى مضرب الأمير وأرادوا أخذه فثبت الله تعالى المسلمين وصبروا صبراً جميلاً ووقعوا على مضرب أميرهم محتسبين لله تعالى ، فلم تكن الا هنيهة حتى هزمت النصارى وولوا الادبار ، وتبعهم

---

(١) بفتح الميم مع شدها من التأمين .

(٢) هو الملقب بالزغل محركة ومعناه بلغة عامة الأندلس الصغير ولا يأتي الزغل بمعنى الصغير فيما أعرف وانما أخذوه فيما يظهر من زغل الصبي أمه رضعها وهو فصيح وازغلت الأم ولدها أرضعته وأزغل الطائر فرخه زقه والزغلول أيضاً بمعنى الطفل هو من هذه المادة ويجوز أن يكون أصل الزغل الزاغل اسم فاعل أو الزغل بكسر وسطه للمبالغة .

المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم قصروا في الطلب مخافة أن يدركهم جيش العدو ، لأنهم كانوا مقبلين نحو المكلين ، يريدون قتاله وأخذه ، وكان ذلك صدر المحلة قد أقبل بالعدة والانفاط والبارود والفؤوس وغير ذلك فاحتوى المسلمون على جميع ذلك ، وارتحلوا بقية يومهم راجعين الى غرناطة فرحين بنصر الله تعالى حامدين شاكرين ، فدخلوا غرناطة بقية النهار وكانت هذه الغزوة من الغزوات المشهورات .

﴿ قال المؤلف عفا الله عنه ﴾ ، فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء من أهل الشجاعة والاقدام في ذلك اليوم ونحن في الطريق راجعون إلى غرناطة قال : « كنت في أول الفرسان ونحن نتبع النصارى ، فكنت أستبق إلى بعض المواضع فأجد النصارى مقتولين ولم نر أحداً سبقني ولا ندري من قتلهم » .

سقوط حصون قنبيل وارنية ومشاقر واللوز

فلما خيب الله سعد العدو وكسر حدته عدل عن المسير إلى حصن المكلين فأقام إلى شهر رمضان من العام المذكور وتوجه بمحلة نحو حصن قنبيل ، فنزل عليه بمحلته ، ونصب انفاطه ، وقاتله قتالاً شديداً حتى هدم بعض أسواره ، فلما رأى المسلمون ما لا طاقة لهم به ، خافوا أن يدخل عليهم عنوة فطلبوا منه الأمان ، وخرجوا مؤمنين بما كان معهم ، وأعطوه الحصن ، فلما استولى العدو على الحصن المذكور أخلى المسلمون حصن ارنية وحصن مشاقر وحصن اللوز وصارت كلها للنصارى .

سقوط حصن صالحة واطلاق سراح أبي عبد الله وتجدد الفتنة

وفي هذا الشهر أيضاً استولى العدو على حصن صالحة من حصون بلش ثم أن العدو دمره الله سرح الأمير محمد بن علي فخرج الى بعض حصون الشرقية ، ووعده بالصلح ان أطاعوه ، فقامت بدعوته تلك

الحصون طمعاً في الصلح ، ثم أن شياطين الإنس صاروا يغوون الناس ويزينون لهم ويعدونهم ويطمعونهم في صلح النصارى الى أن مالت الى كلامهم طائفة من أهل ربض البيازين من أرباض غرناطة ، ووافقهم جل أهل الربض طمعاً في الصلح لأنهم كانوا سيارة وبادية ، فقاموا بدعوة الأمير محمد بن علي ، فعند ذلك اشتعلت الفتنة بين ربض البيازين وبين غرناطة وأميرها محمد بن سعد ووقع بينهم القتال والحرب ، ونصبوا على البيازين الأنفاط ، ورجموهم بالحجارة من سور القصبة القديمة ، ورموا عليهم بالمنجنيق وأهل ربض البيازين يدافعون ويقاتلون[1] ، وينتظرون قدوم الأمير محمد بن علي عليهم ، وهو مع ذلك يرسل اليهم من الشرقية ، ويعدهم بالقدوم عليهم ، وهم في قتال وحصار وشدة مدة ، من ثالث شهر ربيع الأول عام إحدى وتسعين وثمانمائة الى اليوم الخامس عشر لجمادى الأولى عام التاريخ المذكور .

بينما أهل البيازين ينتظرون قدوم الأمير محمد بن علي عليهم ، اذا به سار إلى مدينة لوشة ووقع الصلح بينه وبين عمه الأمير محمد بن سعد أمير غرناطة في حينه ، على أن يسلم لعمه المذكور في المملكة ، ويكون هو من تحت يده ، وأرسل إلى البيازين بذلك ، وأدخلهم في الصلح .

سقوط لوشة وأسر أبي عبد الله من جديد

بينما هم كذلك إذا بصاحب قشتالة دمره الله أقبل بمحلته على مدينة لوشة فنزلها الأمير محمد بن علي ومعه جماعة من أهل نجدة البيازين حين سمعوا بقدوم النصارى عليها تحصنوا بها مع أميرهم محمد بن علي المذكور ، فحاصرها العدو حصاراً شديداً ونصب عليها انفاطه وعدته

---

(١) هذا يؤيد الروايات التي أوردناها في كتاب خلاصة تاريخ الأندلس نقلاً عن تواريخ الأوروبيين وعن نفح الطيب من كون اولئك الناس لبثوا الى آخر ساعة من ملكهم والعدو محدق بهم يقاتل بعضهم بعضاً وكيف يكون الانقراض إلا هكذا .

وقرب اليها بجيشه وآلة حربه ، حتى دخلوا ربضها وهدموا بعض أسوارها بالانفاط وقتل كثير من نجدة الرجال ، واشتد عليهم الحصار فلما رأى أهل لوشة ما لا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جموع النصارى ، وتأخير أهل غرناطة عن نصرتهم ، طلبوا الأمان واتفقوا أن يخرجوا مؤمنين بأموالهم وأولادهم وخيلهم وسلاحهم ودوابهم وجميع ما يقدرون على حمله ، فأجابهم الى ما طلبوا ووفى لهم به ، فأخلوا البلد ورحلوا الى غرناطة بما معهم واستولى العدو على مدينة لوشة في السادس والعشرين من جمادى الأولى عام احدى وتسعين[1] وثمانمائة ولم يسرح صاحب قشتالة الأمير محمد بن علي بل حبسه عنده ليستأصل به بقية الأندلس .

سقوط حصن البيرة

فلما كان النصف الأول من جمادى الآخرة عام التاريخ المذكور خرج ملك الروم بمحلته دمره الله ، فقصد حصن البيرة فنزل عليه ، ونصب أنفاطه وعدته ، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به من شدة القتال والحصار طلبوا منه الأمان ، على أنفسهم وخيلهم ودوابهم وأسلحتهم وجميع ما يقدرون عليه من أمتعتهم فأجابهم الى ما طلبوه منه ووفى لهم به فخرجوا وأخلوا له الحصن وصاروا الى غرناطة .

سقوط حصن مكلين وحصن قلنبيرة

ثم انتقل العدو الى حصن مكلين فنزل عليه بمحلته وقرب منها بعدته وأنفاطه وقاتلهم قتالاً شديداً وهدم بعض الأسوار بالأنفاط ، وكان له أنفاط يرمي بها صخوراً من نار فتصعد في الهواء وتنزل على الموضع وهي تشتعل ناراً فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه[2] فكان تلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل عليها .

---

(١) أثبت العدد هنا وفي مواضع تأتي وذكره في مواضع سبقت والقاعدة معروفة ولعل الاختلاف من تصرف النسخ أو الطبع .

(٢) أشبه بالشرابنل وغيره من مقذوفات المدافع الحديثة .

فلما رأى أهل حصن مكلين ما نزل بهم من البلاء ، وأن لا طاقة لهم به طلبوا الأمان ، كما فعل أهل حصن البيرة وخرجوا مؤمنين بأموالهم ووفي لهم بما طلبوه منه .

فلما سمع أهل حصون قلنيرة ما حل بمن جاورهم من الحصون ، خافوا على أنفسهم ، فطلبوا من العدو دمره الله الأمان على أنفسهم وأموالهم وأن يعطوه الحصن من غير قتال ، ففعل لهم ذلك وأعطوه الحصن ثم رحلوا الى غرناطة بأموالهم وأمتعتهم وأولادهم .

سقوط حصن منتفريد وحصن الضحة

وتوجه العدو إلى منتفريد فنصب عليه عدته وأنفاطه وقاتله قتالاً شديداً فلما رأوا ما لا طاقة لهم به ولم تغن منعة الحصن شيئاً أذعنوا وطلبوا الأمان مثل ما طلب أهل الحصون المتقدمة ، فأجابهم الى ما طلبوا وخرجوا مؤمنين بما معهم من الأمتعة قاصدين مدينة غرناطة أيضاً .

وكذلك اتفق بحصن الضحة أيضاً ، واستولى في هذا الشهر المذكور على جميع هذه الحصون ، وصارت بيده ، وقهر بها غرناطة ، وأخذ في بناء هذه الحصون وتمنيعها وتحصينها واصلاح شأنها وإشحانها بجميع ما تحتاج اليه من طعام وعدة ورجال وغير ذلك ليضيق على غرناطة .

عودة أبي عبد الله والقتال في غرناطة

ثم إن العدو دمره الله تعالى ارتحل إلى بلاده فبقي فيها بعض أشهر وسرح الأمير محمد بن علي وأمره بالخروج الى حصون الشرقية كيداً منه ومكراً ليعمل الحيلة على تلك الجهة فخرج الأمير محمد الى حصن بلش من حصون شرقية الأندلس فقام بدعوته ودخل ثم جعل يكتب إلى المواضع ويرسل الكتب ويعدهم بالصلح مع النصارى ان أطاعوه فلم يقبل منه ولم

يقم بدعوته أحد ، فلم تزل شياطين الفتنة يوسوسون ويعدون الى أن وجدوا في ربض البيازين من غرناطة طائفة من أهل الشر والفساد فقبلوا قولهم ووعدوهم أن يقوموا بدعوته ان كان له صلح مع النصارى وأخفوا حديثهم ولم يظهروه ، ثم ان حصون الشرقية قامت بدعوته طمعاً في الصلح مع النصارى وبقي الأمير محمد بن علي يكتب الى المواضع والقرى ويخبرهم أن معه صلحاً مع النصارى صحيحاً فلم يقبل منه أحد ذلك.فلما رأى أهل البلد لم يقبلوا منه اتفق رأيه أن يسير بخاصته الى ربض البيازين فأخذ من خاصته ومن (؟) يثق به وخرج عن حصون الشرقية قاصداً ربض البيازين من غرناطة فدخل ربض البيازين على حين غفلة من عمه محمد بن سعد أمير غرناطة.ولم يشعر به أحد حتى دخل واجتمعت معه تلك الطائفة المذكورة قبل وانضاف اليه آخرون فاشتدت عصابته وغلظت شوكته وأمر مناديه أن له صلحاً مع النصارى صحيحاً.فقام أهل البيازين بدعوته ولم يقبل منه أهل غرناطة ما ذكر من الصلح وانه ليس بصحيح ، فاشتعلت نار الفتنة بين أهل ربض البيازين وبين أهل غرناطة ، واشتد ضرامها وبلغ العدو ما أمله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وكان دخول الأمير محمد بن علي ربض البيازين في السادس عشر لشوال عام احدى وتسعين وثمانمائة ، فتعصب أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن سعد على أهل البيازين ، وتعصب أهل البيازين مع أميرهم محمد ابن علي ووقع الحرب والقتال بينهم ، وصاروا يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً .

ثم إن العدو دمره الله أمد أمير البيازين بالرجال والأنفاط والبارود والقمح والعلف والبهائم والذهب والفضة وغير ذلك ، ليشد بذلك عضد الفتنة ويقويها ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين فلما كان اليوم السابع والعشرون من المحرم عزم أمير غرناطة فتح ربض البيازين عنوة بالسيف ،

فندب أهل غرناطة وغيرها من أحوازها وقال لهم : « إن هؤلاء القوم قد حلت دماؤهم وأموالهم لنصرتهم بالنصارى فما لهم الا السيف » . وندب أهل بسطة وأهل وادي آش ومن حولهم ، وأمرهم بالهبوط على طريق الفرغ والدخول على باب فج اللبوة في ذلك اليوم ، وفتح أهل غرناطة باب الحديد وباب انيدر ونقبة باب قشتر ونقبة باب البنود وباب البنود ونقبة ربض البيضاء وباب الدفاف فخرجت عليه طائفة وطلعت على الوادي ، فدخلت على باب الشميس ودخلت كل طائفة على جهتها وذلك كله في ساعة واحدة فلطف الله تعالى بأهل البيازين ، فخرج لكل جهة من هذه الجهات طائفة منهم ، فدافعوهم وقاتلوهم وردوهم على أعقابهم منهزمين ، فدخلوا بلدهم وسدوا أبوابهم وبنوا نقبهم .

سقوط بلش في يد العدو

ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين والعدو دمره الله يدبر الحيلة عليهم فلما كان النصف من شهر ربيع الثاني (؟) عام اثنين وتسعين وثمانمائة خرج الطاغية بمحلته إلى أرض المسلمين فقصد إلى مدينة بلش مالقة ، وكانت على ذمة أمير غرناطة ، فنزلها فلما سمع أمير غرناطة بنزوله على مدينة بلش ، ندب أهل غرناطة ، ومن أطاعه من أهل الجهات وترك طائفة تقاتل أهل البيازين ، وخرج يريد نصرة أهل بلش ، وذلك يوم السبت الرابع والعشرون لربيع الثاني[1] من عام التاريخ المذكور قبل ، فلما صار قريباً منها وجد العدو سبقه بالنزول عليها ودار بها من كل الجهات ، فقصد الأمير حصن منتميس فنزله بمحلته ، وأقام به بعض أيام فطلبه الناس أن يسير بهم نحو العدو للقائه فتوجه بهم نحوه ، فرتبهم وكان ذلك عشية النهار ، فدخل عليهم الليل بالطريق فبينما هم سائرون إذ قامت كرة

---

(١) تكرر هذا في قوله والمنقول ربيع الآخر ويظهر أن قول المولدين ربيع الثاني من عصر المؤلف أو ما قبله .

ودهشة ، فانهزموا في ظلم الليل من غير لقاء العدو ولا قتال ، فرجعوا مهزومين مفلولين الى محلتهم فباتوا ليلتهم تلك فمن غد أتاهم الخبر أن العدو استخلص مدينة بلش فسقط في أيديهم وانهزموا من غير قتال ومر كل أحد إلى وطنه .

غرناطة تبايع الأمير أبي عبد الله وتراجع الزغل الى وادي آش

وقصد الأمير محمد بن سعد غرناطة فأخبر في طريقه أن غرناطة قامت بدعوة ابن أخيه محمد بن علي ودخل البلد وملكه وقتل القواد الذين كانوا بالبلد يقاتلونه فلما سمع عمه الأمير محمد بن سعد ذلك رجع الى عقبه[1] يريد البشرّة ، فسار بمن هنالك إلى وادي آش فدخلها بمن معه ، وكان قيام أهل غرناطة بدعوة أمير البيازين محمد بن علي يوم الأحد الخامس من جمادى الأولى عام التاريخ المذكور قبل ، فدخل البلد ونزل في القصبة القديمة ، واستولى العدو دمره الله على بلش يوم الجمعة العاشر من جمادي الأولى عام اثنين وتسعين وثمانمائة ولما استولى العدو دمره الله على بلش دخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش وخرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم وذلك بعد قتال شديد وحرب عظيم فمنهم من جوزه العدو إلى أرض العدوة ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار إلى أرض المسلمين التي بقيت بالأندلس .

حصار مالقة وسقوطها بعد مقاومة شديدة

فلما استخلص العدو بلش وما حولها ، سار بمحلته نحو مدينة مالقة ، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً ، وحصرها ، وأحاط بها من كل جانب ومكان براً وبحراً ، فتحصن أهل مالقة ببلدهم وأظهروا ما كان معهم من

(١) انما يقال رجع أو نكص على عقبه .

السلاح والعدة والانفاط وكان جملة من نجدة الرجال ، فقاتلوا الروم قتالاً شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، والعدو يفتح عليهم أبواباً من الحرب والحيل ، والمسلمون يحرسون بلادهم ويغلبون عدوهم ويقتلون من قرب اليهم ، وهم صابرون محتسبون مدة طويلة حتى ضيق عليهم ، ودور على المدينة سوراً من تراب وسوراً من خشب ، وحفيراً مانعاً ومنع عليهم الداخل والخارج في البر ، ومنع أيضاً في البحر بالمراكب الداخل والخارج ، وشد عليهم القتال والحصار وهم مع ذلك صابرون محتسبون ويقاتلون أشد القتال ، ويمنعون ولا يظهرون جزعاً ولا هلعاً ، ولا يطمعون العدو في شيء مما يرومه منهم ، حتى نفد ما عندهم من الأطعمة والزاد وأكلوا ما كان معهم من المواشي من خيل وبغال وحمير وكلاب والجلود وورق الشجر وغير ذلك من الأشياء التي يمكن أكلها حتى فني ذلك كله ، وأثر فيهم الجوع أثراً عظيماً ومات كثير من نجدة[1] رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقتال ، فحينئذ أذعنوا وطلبوا الأمان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة وأسرهم وسبى نساءهم وأولادهم ، واحتوى على جميع أموالهم وفرقهم على أهل دخلته وقواده ، وكان مصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب ، وتذهل له النفوس وتبكي لمصابهم العيون فإنا لله وإنا اليه راجعون .

الاستيلاء على حصون الشرقية

وكان استيلاء العدو على مدينة مالقة في أواخر شعبان عام اثنين وتسعين وثمانمائة ، فحين خلصت للعدو دمره الله مدينة مالقة وبلش وجميع الغربية ، ولم يبق للمسلمين في تلك الناحية موضع واحد ، ارتحل إلى بلاده من قشتالة وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج نحو حصون

(١) أي من أنجاد رجالهم وجمع نجد على نجدة لم أجده وانما جمع نجد بمعنى شجاع على أنجاد وان كان المفرد هو النجيد فتجمع على نجد بضمتين ونجداء ولعله أراد بنجدة جمع ناجد فأجراها مجرى فاعل وفعلة .

الشرقية ، وكانت في صلحه ، فاستولى على تلك الحصون كلها غدراً ومكراً من غير قتال ولا حصار ولا تعب ، وصارت جميع حصون الشرقية في قبضته وتحت ايالته ثم رجع الى بلاده من قشتالة .

حصار بسطة وسقوطها بعد حصار طويل

وفي شهر رجب سنة أربع وتسعين وثمانمائة خرج العدو دمره الله بمحلته وعدته وقصد نحو حصن موجر ، فحاصره وقاتله قتالاً شديداً أياماً قلائل فاستولى عليه ، واستولى أيضاً على الحصون القريبة منه ، ومن مدينة بسطة وقصد مدينة بسطة ، فنزل قريباً منها فوجد بلداً مقيماً بالخيل والرجال والعدة والطعام ، فكلما قرب من البلد وأراد قتال المسلمين رجع خائباً خاسراً ، وقتل خلق منه كثير ، ولم يقدر أن يمنع داخلها وخارجها ، كما فعل بغيرها من المدن وكان يدخلها كل من جاءها من نجدة الرجال فبقي محاذياً لها شهر رجب وشعبان ورمضان ، والمسلمون قائمون ببلدهم ، غالبون لعدوهم ، فكلما أراد الدنو من البلد قمعوه وردوه على عقبه خائباً خاسراً لم يقدر على نصب نفط ولا عدة من آلة حربه ، فلما كان شهر شوال شد عليهم الحصار ، وعمل على البلد سوراً من خشب وحفيراً عظيماً ، وجعل على ذلك الرجال والحراس لئلا يدخل داخل من أنجاد الرجال الذين يأتون لنصرتهم واعانتهم على عدوهم ولا من يجلب لهم الطعام،ولم يعبأ المسلمون بماصنع فكانوايخرجون من النقب ، ويهبطون من على الأسوار ويقتلونهم في محلتهم في مسلك يسلكونه ، حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعندما رأى أهل بسطة أن لا طاقة لهم بالعدو مالوا إلى التسليم وتصالح القواد مع الطاغية على أن يدخل البلد وينال الجميع الأمان ويحملون المسلمين الواردين بخيلهم وأسلحتهم وأمتعتهم ، كما شرط عليه قواد البلد فساروا الى مدينة وادي آش وأخلوا البلد للنصارى ، وخرجوا الى الأرباض بما معهم من أموالهم وأمتعتهم مؤمنين ولم يتركوا

شيئاً الا شقف[1] البلد خاصة .

ثم أن ملك الروم دمره الله جعل في البلد قائداً من قواده ، وحاكماً ورتبه وأشحنه بما يحتاج اليه من أطعمة وزاد وآلة حرب وارتحل من بسطة يريد مدينة المرية فلم يمر على حصن ولا قرية إلا ودخل في ذمته وتحت طاعته من غير قتال ولا حصار .

الزغل يدخل في طاعة الطاغية

ثم خرج الأمير محمد بن سعد من مدينة وادي آش تابعاً لصاحب قشتالة ، فلما لحقه بايعه ، و دخل في ذمته وتحت طاعته على أن يعطيه مدينة وادي آش وكل مدينة وحصن وقرية كانت تحت طاعته وحكمه ، فأجابه الى مطلبه ، ورجع معه الى وادي آش وهو فرح مسرور ، فدخلها العدو وقبض قصبتها واستولى عليها في العشر الأول من شهر صفر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ودخل في ذمته جميع فرسان الأمير محمد بن سعد ، وجميع قواده وصاروا له عوناً على المسلمين ، وطوعوا له جميع البلاد والقرى والحصون التي كانت تحت طاعته من مدينة المرية الى مدينة المنكب الى قرية البذول فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نصب فانا لله وإنا اليه راجعون ، وجعل في كل قصبة قائداً نصرانياً مع جماعة من النصارى يحكم أهل ذلك الموضع وفي هذا الشهر المذكور خلصت جميع بلاد الأندلس لصاحب قشتالة ، ودخلت تحت طاعته وتدجن[2] جميع أهلها ، ولم يبق للمسلمين في الأندلس غير مدينة غرناطة وما حولها من القرى خاصة ، وزعم كثير من الناس أن الأمير محمد بن سعد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه البلاد والقرى التي كانت تحت

---

(١) الشقف محركة هو الحزف .

(٢) معلوم أن المدجنين هم المسلمون الذين دخلوا تحت حكم النصارى في الأندلس وقد اشتق المؤلف منه فعل تدجن .

طاعتهم ، وقبضوا منه ثمنها ، وذلك على وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه محمد بن علي وقواده ، لأنهم كانوا في غرناطة ولم يكن تحت طاعتهم غير غرناطة وكان في صلح العدو فأراد بذلك قطع علائق غرناطة لتهلك كماهلك غيرها .

تضييق الخناق على غرناطة

فلما صارت هذه البلاد كلها تحت ذمة العدو ولم يبق لصاحب قشتالة سوى غرناطة التي هي في صلحه ورأى أن الاسلام دثر من جميع بلاد الأندلس وقع طمعه ، ونقض ما كان بينه وبين صاحب غرناطة محمد بن علي من الصلح[1] فأخذ برج ملاحة غرناطة وبرج قرية همدان وكانا برجين كبيرين حصينين فزادهما تحصناً وتمنيعاً وأشحنهما بالرجال وما يحتاج اليه من آلة الحرب ليضيق على أهل غرناطة لأنهما كانا قريبين منها ، فضيق بذلك عليها أشد الضيق .

صاحب قشتالة يطلب إلى الأمير محمد بن علي تسليم الحمراء

وفي هذه السنة وهي سنة خمس وتسعين وثمانمائة بعث ملك النصارى إلى صاحب غرناطة محمد بن علي يسأله أن يعطيه مدينة الحمراء من غرناطة . ويترك للأمير محمد المذكور سائر البلد ، والدخول في ذمته كما دخل فيها سائر الأندلس ، وظن أن ذلك يتم له فأطمعه الأمير محمد بن علي في ذلك . فخرج صاحب قشتالة مسروراً بمحلته لقبض مدينة الحمراء وغرناطة وللنزهة فيها وخرج معه النساء والصبيان بقصد النزهة ولم يظن أن في مدينة غرناطة مدافعاً له ولا مقاتلاً ولا معانداً .

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة وما أقرب هذه الأفعال من سياسة الدول المستعمرة اليوم في اعرائها أحد أمراء الاسلام بقتال جاره حتى اذا قضت وطرها من جاره قلبت ظهر المجن لهذا الذي كان يظن أنها حالفته .

غرناطة ترفض التسليم والعدو يحاصرها ثم يتراجع

فحين وصل خبر خروج صاحب قشتالة وأنه قادم على غرناطة حسبما ذكر جمع أمير غرناطة خاصته وعامته وأخبرهم بمراده ، وما طلب منه ، وانما خروجه ليدخل البلد على الصفة المذكورة ، واستشارهم في ذلك ، فأجمعوا على قتاله ومدافعته عنهم بما أمكنهم حتى يفتح الله عليهم أو يهلكوا عن آخرهم وتعاهدوا مع أميرهم أن يكونوا يداً واحدة على قتال عدوهم ، فبلغ ملك النصارى مقالتهم ، وما اتفقوا عليه فساءه ذلك وغمه ، فجمع جميع جيوشه ونزل بمحلته مرج غرناطة وجعل يقطع الطرق ويفسد الزرع وغيره ، فخرج اليه فرسان المسلمين من أهل غرناطة يقدمهم القواد وبرز الأمير مع الرجال قريباً من البلد ، قلوبهم واثقة بالله يسألون من الله سبحانه النصر والمعونة على عدوهم ، وخرج مع ملك الروم في محلته جماعة من المرتدين الداخلين في ذمته من أهل الحصون والقرى والمدن[1] ، يدلونه على عورات المسلمين ، ويحرضونه على قتالهم ، وكان خروج الروم في أول رجب من سنة التاريخ ، فكلما أرادوا الدنو من البلد وفتحوا للكرب باباً ردهم الله على أدبارهم مهزومين مفلولين بنصر الله ومعونته ، وفرسان المسلمين صابرون محتسبون حتى قتلوا من الروم خلقاً كثيراً ، فلما عاين ملك الروم انه لا طاقة له بالدنو من غرناطة ، وان بها حماة من الفرسان والرجال منعوها من كل جهة ومكان وأيدهم الله بعزيز نصره ، ولم يتركوه يجد فيها فرصة ، ارتحل عنها بعض أناسله من الغيظ وذلك في النصف من شهر رجب عام تاريخه وهدم برج غويو وزاد اشحاناً للبرج من المرتدين أهل القرية وشرذمة أخرى من النصارى وشيئاً كثيراً من الطعام والعدة وآلة الحرب وعمر أيضاً برج الملاحة وشحنه بمثل ذلك ورحل الى بلاده من قشتالة .

---

(١) قد ورد فيما نقلناه عن تواريخ الفرنجة وعن المقري طرف من خبر هؤلاء المرتدين .

أبو عبد الله ينهض للجهاد ويستولي على البشرة

بعد ارتحاله بأيام قلائل خرج أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن علي إلى قرية البذول ، وقاتلوا من بها من النصارى والمرتدين حتى فتحها الله تعالى ودخلوها عنوة ، وفتح الله ذلك الأقليم كله ودخل في ذمة المسلمين ، فرجع أهل غرناطة الى بلادهم فرحين مستبشرين بنصر الله تعالى[1] ، فبعد وصولهم وردت عليهم ارسال من قبل قرى البُشَرَّة يطلبون من الأمير محمد أن يقدم عليهم بجيش المسلمين ليدخلوا في ذمته ، فخرج اليهم من غرناطة في بقية رجب المذكور بجماعة المسلمين من أهل غرناطة ، فقصد قرية الأنجرون من قرى البشرة فنزل هنالك ، وانجلى من كان هنالك من النصارى والمرتدين .

فلما كان شهر شعبان من سنة التاريخ بعث من بالبشرة إلى الأمير بغرناطة يعلمه أن هذه الجهات التي بقيت مع النصارى بعثوا أن يقدم الأمير محمد بن علي عليهم ليدخلوا في ذمته فبرح[2] الأمير على أهل نجدة فرسان غرناطة ، وخرج بهم في العشر الأول من عام التاريخ يريد البشرة ، فقصد حصن اندرش وكان به الأمير محمد بن سعد وجماعة المرتدين ، فلما سمع بقدوم الأمير محمد بن علي بجيش أهل غرناطة خرج بمن معه من المرتدين هارباً مهزوماً إلى مدينة المرية ، ورجع كثير ممن كان معه الى المسلمين ، ودخل أمير غرناطة بمحلته حصن اندرش واسترجعت تلك الجهات كلها إلى الاسلام كما كانت أولاً من غير حرب ولا قتال ، وسمع من كان ببرجة ودليد بذلك فهربوا ورجعت أيضاً تلك الجهات كلها إلى المسلمين ، فرتب الأمير محمد بن علي هنالك قواداً وفرساناً ، وارتحل نحو غرناطة فدخلها في نصف من شعبان عام خمسة وتسعين وثمانمائة بمن

---

(١) وترك الأمير وزيره بجماعة أنجاد الفرسان يقاتل من بقي . . . من النصارى والمرتدين .
هـ من حاشية الأصل المطبوع .

(٢) أهل المغرب يستعملون برح عليه بمعنى نادى وهو من البراح بمعنى الأمر البين والجهر .

معه من جيوش المسلمين ، وعامتهم فرحين مستبشرين بنصر الله تعالى وتأييده .

سقوط حصن اندرش في يد العدو

فلما كان العشر الأول من شهر رمضان عام التاريخ أتت طائفة من المرتدين والنصارى فغلبوا على حصن اندرش فملكوه ، وفر منه من كان به من فرسان المسلمين لأنهم كانوا شرذمة قليلة وأتاهم ما لا طاقة لهم به .

استيلاء أبي عبد الله على مدينة همدان

وفي السادس من شهر رمضان عام التاريخ خرج ملك غرناطة بمحلته نحو قرية همدان يريد فتحها وأمر باخراج العدة وآلة الحرب وكان بالقرية المذكورة جماعة من فرسان النصارى دمرهم الله والمرتدين من أهل القرية ، وكان ملك النصارى بنى حول برجها بنياناً عظيماً منيعاً بأنواع من بناء الحرب وخدعته ، وحصن برجها تحصيناً منيعاً وأشحنه بكثير من الطعام وآلة الحرب والمنعة ، يظهر لمن رآه أن لا طاقة لأحد بأخذه لما يراه من تشييد بنائه وتحصينه وتشعب أسواره وظن أهل غرناطة أنهم لا طاقة لهم بأخذ ذلك ولا فتحه . فحين نزل أهل غرناطة مع أميرهم بقرية همدان فتحصن[1] من بها من النصارى والمرتدين بحصنهم ، ودارت بهم جيوش المسلمين من كل جانب بالقتال الشديد حتى قربوا من السور الأول فجعلت كل طائفة من المسلمين نقباً حتى دخلوا معهم في الحزام الأول ثم في الثاني ثم في الحزام الثالث حتى الجأوهم الى داخل البرج ، وذلك بعد محاربة وقتال شديد واستشهد فيه جماعة من المسلمين رحمهم الله تعالى ، فحين وصل المسلمون الى أصل البرج أخذوا في نقبه فجعلوا ينقبون ويدعمون بالخُشب الى أن نقبوا فيه نقباً كثيراً ، فلما رأى من في البرج أن

---

(١) كذا ولعل أصله تحصن لأنه متعلق حين وما بعد أن ولا يعمل فيما قبلها .

النقب قد كثر خافوا من اهدام[1] البرج عليهم ويهلكوا[2] ، فأعطوا البرج وأذعنوا للأسر فأسروا عن آخرهم ومن معهم من المرتدين ، واحتوى المسلمون على ما كان في البرج من الطعام والعدة والأموال ونحو مائة وثمانين أسيراً .

استيلاء أبي عبد الله على حصن شلوبانية

ثم أقبل الأمير بمحلته راجعاً الى غرناطة في اليوم الحادي عشر لرمضان المعظم عام التاريخ ، وفرح المسلمون بما منحهم الله وفتح عليهم فرحاً شديداً فأقام الأمير بها الى الثامن عشر من رمضان المذكور عام التاريخ ثم نادى مناديه في كافة أهل غرناطة من خاص وعام وكبيرهم وصغيرهم أمرهم بالاستعداد والخروج الى مدينة المنكب يريد فتحها . فخرج بعد صلاة الجمعة من ذلك اليوم بمحلته فجاز على قرية البذول ، فأمر بهدم برجها ثم سار نحو الساحل فاجتاز حصن شلوبانية . فتحصن من بها من النصارى والمرتدين بحصنهم ، وقاتلوا المسلمين فزحفت اليهم جموع المسلمين ، وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى دخلوا الحصن والجأوهم الى القصبة فتحصنوا بها ودار بهم المسلمو ن من كل جانب ومنعوا لهم[3] الماء وضيقوا عليهم في الحصار حتى نفدت الخيل والدواب من شدة ما لحقهم من العطش ، فأقام عليهم المسلمون بقية رمضان وهم طامعون في فتح الحصن .

وإذا بخبر جاء الأمير أن طاغية الروم خارج بمحلته نحوهم يريد

---

(١) يقال هدم البناء وهدمه بالتشديد ولم ينقل وأهدمه فلعله تحريف .

(٢) وفي نسخه ويهلكون .

(٣) لعل أصله ومنعوهم فإنه يقال : منعه الشيء ومنعه منه وعنه . اهـ . مصحح الطبع

غرناطة في ثالث شوال عام تاريخه فأقاموا بها نحو ثلاثة أيام أو أربعة واذا بملك النصارى أقبل بمحلته ونزل مرج غرناطة ومعه طائفة من المرتدين والمدجنين يدلونه على عورات المسلمين ، ويعينونه عليهم ، فجعلوا يقطعون الذرة والكرمات ويفسدون ، والمسلمون على قلتهم وضعفهم صابرون على القتال محتسبون لله تعالى ويقتلون من الكفار خلقاً كثيراً ، حتى منعوهم عن فساد كثير من الذرة والكرمات التي بالفحص[1] فأقام نازلاً عليهم نحو ثمانية أيام وأمر باخلاء برج الملاحة وبرج رومة وهدمهما وارتحل يريد بلاد قشتالة فمر في سيره على برج اللوزات فأمر بهدمه ، ثم انطلق الى مدينة وادي آش فأخرج من كان بها من المدجنين ، ولم يترك بها ولا في أرباضها أحداً منهم ، فخرجوا من مدينتهم أذلة صاغرين ، فتفرقوا على القرى وأمر بهدم قصبة أندرش ، وتفلل[2] أولئك المرتدون الذين كانوا بها وأميرهم محمد بن سعد ، ولم يبق لهم عند صاحب قشتالة جاه ولا حظوة ، فمنهم من جاز مع الأمير محمد بن سعد لعدوة وهران ، ومنهم من رجع الى المسلمين ومنهم من أقام مع النصارى .

المسلمون يستعيدون اندرش وما حولها

ثم ارتحل ملك الروم الى داخل بلاده لأمر مهم حدث له هنالك وفي أواخر شوال تغلب المسلمون على أندرش وما يليها ودخلت في ذمة المسلمين ، ثم صار المسلمون الى حصن مرشانة فحاصروا من كان بها من النصارى وقاتلوهم حتى نزلوا للأسر ، واسترجعت تلك المواضع والجهات للمسلمين فلما رأى أهل قرية فنيالة استرجاع من جاورهم للاسلام ، أرادوا القيام على من في قصبتها من النصارى فخادعهم النصارى بالكلام وبعثوا الى صاحب وادي آش ، فقدم عليهم بمن معه من النصارى ،

---

(١) الفحص . : الربض .

(٢) تفلل القوم انكسروا وفي لغة العامة بالشام تفرقوا . وفي اللسان وفل القوم يفلهم فلا هزمهم فانفلوا وتفللوا ، وهم قوم فل : منهزمون .

فأحاط بقريتهم من كل جانب ومكان ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ودخلوا عليهم القرية ، وهبط من كان في القصبة من النصارى ، وقتلوا كثيراً من رجال المسلمين ، واستولى النصارى على جميع ما كان بالقرية من الرجال والنساء والصبيان والأموال وساروا بهم الى داخل بلادهم مأسورين .

الأمير محمد بن علي ينجد أهالي وادي آش وينقلهم الى غرناطة

فلما رأى أهل قرى سند وادي آش ما اتفق لأهل قرية فنيانة خافوا أن يتفق لهم كذلك ، فبعثوا لأمير غرناطة يستنصرونه ويطلبون منه أن يسير اليهم بأهل غرناطة ودوابهم فيرفعون ما معهم من الأمتعة والأموال والزرع وغير ذلك ، فخرج اليهم أمير غرناطة بأهل البلد في الثالث عشر لذي القعدة عام التاريخ يريد نصرتهم ورفعهم من قراهم ، فنزل بقرية ونجر ، فأقام بعض أيام ، ثم ارتحل من قرية ونجر الى قرية شريش من قرى وادي آش ، فنزل هنالك وأقام بها نحو ثمانية أيام ، وبعث لنواب غرناطة وما يليها من القرى وصاروا ينقلون الزرع من قرى وادي آش ويحملونه الى غرناطة ، فحملوا منه زرعاً كثيراً إلى غرناطة ، وونجر وأمر الأمير محمد بن علي باخلاء تلك القرى وارتحالهم عن آخرهم بأهلهم ونسائهم وصبيانهم وما قدروا على حمله من أموالهم وزرعهم ومواشيهم ، وكان في تلك القرى من القمح والشعير والذرة شيء كثير لا يطاق على وصفه فبلغ الأمير محمد ابن علي أن النصارى دمرهم الله قد جمعوا له ، فارتحل من قرية شريش راجعاً إلى قرية ونجر ثم دخل غرناطة آخر النهار في الثالث والعشرين لذي القعدة عام تاريخه .

ثم ان النصارى دمرهم الله لما رأوا أن أهل تلك القرى قد فروا بأنفسهم الى أرض المسلمين وأخلوا قراهم (أظهروا لهم الأمان من رجع الى قريته أمن فرجع كثير الى قراهم) وركنوا الى قول النصارى ودخلوا في ذمتهم ولم يزالوا يرجعون الى مواضعهم حتى لم يبق منهم في أرض المسلمين الا القليل .

ملك قشتالة يحاصر غرناطة من جديد

وفي الثاني عشر لجمادي الآخرة عام ستة وتسعين وثمانمائة خرج ملك قشتالة بمحلته الى فحص غرناطة ، وكان ذلك بموافقة العشر الأخر من شهر ابريل العجمي والزرع أخضر ، فأفسدوا زرعها ، ودوخوا أرضها ، وهدموا قراها ، ثم سار إلى قرى الأقليم فأفسد زرعها ، وهدم قراها ، وقتل ناساً وأسر آخرين ، وعاد إلى فحص غرناطة ونزل بمحلته بقرية عتقة ، ثم شرع في البناء هنالك مسوراً[1] كبيراً في أيام قلائل وسماه شنتفي ، وصار يهدم القرى ويأخذ ما فيها من آلة البناء ويجعله على العجل[2] ، ويحمله الى ذلك البلد الذي بني ويعني به وهو مع ذلك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالاً شديداً وحارب ملك الروم أبراج القرى الدائرة بغرناطة ، وأخذها ولم يبق عليه الا قرية الفخار ، فلم يزل يلح عليها ويجلب عليها بخيله ورجله ويطمع أن يجد فيها فرصة فلم يقدر على شيء حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم ، ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى لأن المسلمين كانوا يلحون على حمايتها خوفاً أن يملكها الروم فتكون سبباً لخلاء قرى الجبل واحصار البلد ، فلم يزالوا يدافعون عنها ويقاتلون من قصدها حتى قصر عنها العدو لكثرة ما قتل له عليها من خيل ورجال .

الحرب سجال

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم ، تارة في أرض الفخار ، وتارة في أرض بليانة ، وتارة في أرض رسانة ، وتارة في أرض طفير ، وتارة في أرض يعمور ، وتارة في أرض الجدوي ، وتارة في أرض رملة أفلوم ، وتارة في أرض الربيط ، وتارة في وادي منثيل وغير

---

(١) ضبط بفتح الميم مشددة ولعله مفعول لفعل سقط من النسخ اي فبنى مسوراً .

(٢) جمع عجلة

ذلك من المواضع التي على غرناطة ، وفي كل ملحمة من هذه الملاحم أثخن ناس كثير من أنجاد المسلمين بالجراحات ، ويستشهد آخرون ، ومن النصارى أضعاف ذلك ، والمسلمون في ذلك صابرون محتسبون واثقون بنصر الله تعالى يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلوب صافية ، ويمشي منهم الرجال في ظلام الليل لمحلة النصارى ويتعرضون لهم في الطرقات ، فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم ورجال وغير ذلك ، حتى صار اللحم بالبلد من كثرته رطل بدرهم ، ومع هذا لم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى ، والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين بسبعة أشهر الى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل ، ولم يبق منها إلا القليل وفني أيضاً كثير من نجد الرجال بالقتل والجراحات ، وفي هذه المدة المذكورة انجلى كثير من الناس إلى بلاد البشرة لما نالهم من الجوع والخوف ، وكان الطريق للبشرة على جبل شلير ، وكان يأتي للبلد من البشرة على ذلك الطريق خير كثير من القمح والشعير والذرة والزيت والزبيب وغير ذلك من الفواكه والسلع .

توقف المدد عن أهل غرناطة والكلام في الصلح

وما زال حال البلد يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل شهر المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة . ودخل فصل الشتاء والثلج نازل بالجبل ، وقطع الطريق من البشرة فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة ، واشتد الغلاء ، وأدرك الجوع كثيراً من الناس ، وكثر السؤال ، والعدو ساكن في بلده ومحلته ، وقد منع الفحص كله ، ومنع المسلمين من الحرث والزراعة ، وقطع الحرب في هذه المدة بين الفريقين ، فلما دخل شهر صفر من عام التاريخ اشتد الحال على الناس بالجوع وقلة الطعام وادرك الجوع كثيراً من الناس الموسرين ، فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان ومن له نظر بغرناطة وساروا الى أميرهم محمد بن علي فأعلموه بحال الناس

وما هم عليه من ضعف وشدة الجوع وقلة الطعام ، وان بلدهم بلد كبير لا يقوم به طعام مجلوب ، فكيف ولم يجلب اليه شيء ، وان الطريق الذي كان يأتيهم عليه الطعام والفواكه من البشرة انقطع ، وان أنجاد فرسانهم هلكوا وفنوا ، ومن بقي أثخن بالجراحات ، وقد امتنع عنهم الطعام والزرع والحرث ، وان رجالهم هلكوا في تلك الملاحم ، واخواننا المسلمون من أهل عدوة الغرب لم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا واغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا ، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً ، والمدد يأتيه من بلاده ، ونحن لا مدد لنا ، وهذا فصل الشتاء قد دخل ، ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت ، وهو قد قطع عنا الحرب ، وان تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل ما نطلب منه ، وان بقينا حتى يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع ما يلحقنا نحن من الضعف ، والقلة فلن يقبل منا ما نطلبه منه ، ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ، ولا على بلدنا فانه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عوراتنا ، ويستعين بهم علينا . فقال الأمير محمد انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم ، فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم ، وزعم كثير من الناس أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم بينهم وبين ملك الروم النازل عليهم الكلام في إعطاء البلد ، الا أنهم خافوا من العامة ، وكانوا يحتالون عليهم بلاطفونهم فحين أتوهم بما أضمروا عليه عَفَوْهم من حينهم ، ولأجل ذلك قطع الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكاً مع العامة ، فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغباً فيه ، فأنعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه .

شروط الصلح

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم : يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع

ما بأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة ، ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته ويحمله في مراكبه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين ، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر . وكتب لهم بذلك كتاباً وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق في دينه مغلظة على أن يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه .

صاحب قشتالة يدخل غرناطة

فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة ، فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته ، وكتبوا ببعتهم وأرسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول إلى مدينة الحمراء والى غرناطة ، فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازهها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى ، لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة أو تسعين وثمانمائة أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوا خمسمائة رجل منهم وأقعدهم بمحلته ، فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير ، وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً الى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه ، وقدم في البلد قواداً وحكاماً وبوابين ، وما يحتاج البلد اليه من الأمور وصار المسلمون يختلفون الى

المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ، ولما سمع أهل البشرة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس فانا لله وإنا اليه راجعون .

ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين اطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه وبقي الجند خارج البلد ، وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار الى محلته فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها وتحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ودار فيه ، في نصر من قومه وحشمه ، فلما اطمأن في البلد سرّح لهم الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل ، فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصارى ، وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى في البحر محترمين مكرمين مؤمنين .

وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقرهم بذلك وليثبطهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على الجلوس مع النصارى .

الأمير أبي عبد الله في اندرش ثم جوازه الى العدوة

ثم إن ملك الروم أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله واتباعه ، فنزل قرية اندرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمداً إلى العدوة ، فأمره بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة ، واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز ، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة الغرب ، ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله ، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون ، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ، ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الأندلس ، فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ، ولم يجوّز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال .

اكراه المسلمين على التنصر

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً [1] الى أن نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم الفروضات ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الأذان من الصوامع ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم

---

(١) وهذه أيضاً من الأمور التي لها نظائر كثيرة في تاريخ الاستعمار .

بيق فيها من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، ولم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أتم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ، ولا على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيا لها من فجعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً انه على كل شيء قدير .

ثورة المدجنين

وقد كان بعض أهل الأندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش وبلفيق فجمع عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم ، الا أن ناساً في غربية الأندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقتاد .

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة الغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه ، ولم

يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ؛ وانطفى من الأندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لأمره ، ولا قوة الا بالله العليّ العظيم ، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
نبذة عن حياة المؤلف	٧
نبذة عن حياة المترجم	١١
تمهيد تاريخي في ذكر بني سراج	٢١
القصـــة	
الفصل الأول : سطور من التاريخ	٢٧
الفصل الثاني : ابن حامد	٣٣
الفصل الثالث : خفقات قلب	٤٣
الفصل الرابع : العودة واللقاء	٦٣
الفصل الخامس : توما دو لوترك	٦٩
ملحق كتاب آخر بني سراج	
كتاب اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر	٩٣
مقدمة	٩٥
الامير أبو الحسن يقضي على الفتنة	٩٧
انتقاض الاميرين محمد ويوسف على أبيهما	١٠٣
عزل ابي الحسن وانتقال المُلك إلى اخيه	١٠٥
عـودة ابي عبد الله والقتال في غرناطـه	١١٠
غرناطة تبايع الامير أبي عبد الله	١١٣
الزغل يدخل في طاعة صاحب قشتالة	١١٦
صاحب قشتالة يطلب تسليح الحمراء	١١٧
أبو عبد الله ينهض للجهاد	١١٩

ملك قشتالة يحاصر غرناطة من جديد	١٢٤
الكلام في الصلح	١٢٥
صاحب قشتالة يدخل غرناطة	١٢٧
الامير ابي عبد الله يجوز الى العدوة	١٢٩
اكراه المسلمين على التنصر	١٢٩
ثورة المدجنين	١٣٠